

الحبيب السائح

تِنْجِيرِيْنُ

محنة الرهبان السبعة

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING



تَبْنِجِيرِينُ
محنة الرهبان السبعة
رواية
الحبيب السائح



الكاتب: الحبيب السائح

عنوان الكتاب: تَبْنِجِيرِينُ

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 3-43-775-9921-978

الطبعة الأولى - مايو/ أيار - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: +965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبى، بناية الكاهجي

تلفون: +964 78 11 00 58 60

✉ takween.publishing@gmail. f takweenkw

com

📷 takween_publishing

📺 TakweenPH

🌐 www.takweenkw.com

تَبْحِيرِينَ

«من خلالي يدخل الإنسان المدينة المحزنة؛ ومن خلالي يذوق الآلام السرمدية؛ ومن خلالي ينضم للأجناس الضالة، فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار..».

الكوميديا الإلهية

الفصل الأول : المجيء إلى تيبجيرين

سيّدة الأطلس

فثنتي الأولى ووخشتي

اليوم، وقد أمسيت وحيدا في الدير كفأر كنيسة، ها أنا الناجي من المذبحة الشيخ أميدي، كما يدعوني صديقي الإمام الشيخ عبد الرحمن وبقية جيراني المسلمين، جالس هنا في المكتبة الصامتة إلى طاولة القراءة الباردة أمام دفتر يومياتي -ما تبقى من يومياتي- مفتوحا إلى جانب سبعة دفاتر يوميات أخرى، أستجمع قواي العقلية لعلّي، إن أسعفتني العافية، أسجل بعض ما قدّر لي ولإخواني السبعة، الذين هم اليوم عند أبينا الذي في السموات، أن نقطعه في مساراتنا التي على اختلافها انتهت بنا جميعا إلى تيبجيرين.

وها أنا الآن، إذ أحرك يدي بالقلم، يسبق إلى ذهني تاريخ مغادرتي دير الآباء البيض في حي حسين داي، في سن السابعة والعشرين، ودخولي دير سيّدة الأطلس قادما إليه من مدينة الجزائر في حافلة قطعت بنا منحرجات جبال الشقة في سرعة سلحفاة، وقد أحاطت بها قردة الماغو من كل جانب متلقية من الركاب قطع الخبز وحبّات الموز وسط طبيعة أسرة بمناظر قمم جبالها المتوجة بالثلج ومائها المتدفق من الشلالات والجاري في الوادي إلى المهوى؛ بينما أنت تحس الاخضرار الناعم إنما يد الإله لا تنشره إلا لندرك أنه يحبنا.

فقد كان يوما من أيام شتاء العام الثاني، من نهاية الحرب العالمية الثانية، ذاك الذي نزلت خلاله بمدينة المديّة ومنها صعدت مشياً إلى قرية ذراع السّمّار، لودي سابقا، نحو سيّدة الأطلس، لا أحمل سوى حقيبة سفر؛ فكان ما ملأ ناظري من محيط تيبجيرين كلّ الدير الهادئ الصامت الساكن عند سفح جبل الناصور بينما تشبّه لي قرميده الأحمر بشقائق

نعمان في حقل من الاخضرار، فتوقفت للحظات لا لأسترد أنفاسي، جراء ارتفاع المكان
بثمانمائة متر على مستوى سطح البحر، ولكن شعورا بسعادة لم أعرفها من قبل كانت
غمرتني، متأملا برّجيه وأفاريزه ونوافذه المقوسة ذات الشكل الموريسكي، متخيلا إياه
كتلة صمّت حطها القدر حطا هكذا؛ كمثلما لا تكون سواعد بشرية قد تعاقبت على بنائه
فحملت حجارته حجرة حجرةً وشدّبتها أيادٍ وسوّتها ورصفتها فوق نظائرها جدراناً تاركة
فيها منافذ للنور والهواء ومداخل ومخارج لمثلي؛ فداخَلني عنها أن لها، هي الحجارة، أذنا
تسمع وعينا تبصر وعقد ميلاد في سجل تاريخ العمارة ولغة تغيب معانيها عن الأحياء
مثلي. إذ لا شيء أبكم في هذا الوجود. فكم حجرة من أحجار الدير كان يمكن لحجم جسم
إنسان مثلي أن يساويها ضمن الكتلة الكلية لبنائته؟

عندما فُتح لي بابه، مثلما بيد من غيب، بينما هي في الحقيقة يد الأخ لوقا كما كنت
سأعرف، انبعثت من غوره ترانيم روحانية ممتزجة بالبخور تموجت فأطربت سمعي
وأبهجت نفسي. ودخلت فمشيت في الرواق؛ عن يميني وعن شمالي صفّان من الإخوان،
كأنهم الحواريون، يحملون شمعة بيد وبأخرى زهرة. وعند المذبح وضع الأخ لوقا على
رأسي إكليلا من الزهر وقال «هذا إكليل الفرحة والنعمة. فأنت اليوم تنتصر على الشهوة».
فهمست «صدق القديسون». هل كنت في حلم؟

لا أذكر أنني شاهدت في هذا البلد مكانا، مثل تَيْبِجِيرِين، تحضنه جبالٌ يكلّل رؤوسها ثلج
الشتاء وتجاوره في القرب والبعد بيوت الفلاحين، انجذب إليه روعي من النظرة الأولى،
فكان للزمن أن يثبتته على جدار ذاكرتي كنقش صخري لا أزال أحمله إلى اليوم بشعور
السعادة نفسها ودفئها! تَيْبِجِيرِين؛ هذه المزرعة القديمة المتربعة اليوم على سبعة هكتارات
مخصّص بعض مساحتها لأشجار الكروم والتين والزيتون والليمون والمشمش والكرز
وغيرها وبعضه لمرج الحبوب وبعضه الآخر لمربعات البقول والخضار.

فما يسحرك، لأن للأديرة سحرها الصامت الساكن البارد، ليس فحسب أقسام بناية الدير
ومرافقه ومذبحه وأيقوناته، وما يتوزع عبر ساحته من أشجار الصنوبر وأدغال الورد ومن

تماثيل هنا وهناك وكذا الصليب الأكبر، ولكن أيضا الغابة المحيطة ذات الخضرة البكر
الآسرة بجاذبية لونها المتحول مع نور الشمس أطيافا خالبة ككرامة أنشأتها لك يد الإله
علامةً من علامات جلاله.

فقد صادف ذات يوم من أيام الربيع، إذ صعدت إلى منارة الدير فدرت حول نفسي دورة
درويش مسلم فرحةً بحظوة تبادل مطرقة الناقوس، أن سمعت همسا وصلني من غابة
تبيبحيرين يخبرني عن وجودها قبل أن ينزل آدم إلى الأرض - ولكن من أكون أنا مقابل
غابة! ومن دهشتي رحت أحسبها تراني كما أراها عينا بعين. فتبلبت كلماتي أمام الريح
تقول لها ما لا أفقهه، مثلما لا أفقه لغة المطر والثلج والحشرات والحيوانات والطيور
والخنافس والديدان التي تضمها كلها بلا ضجر ولا ضيق وهي تحاورها.

تبيبحيرين هي التي كانت ستسمعي في ليالي الشتاء عواء ذئب للبدر وضباح ثعلب لأنثاه
ومواء أرنب بري للاقتران. كما أرتني السنونوات ترقص لاهية على بساط الثلج وطائر
الصفار يغني ربيعا لنور الشمس يشرق به خضاب النباتات والورشان مزهوا بإلفه وأسراب
اللقاق هذه التي تعود مساء إلى أعشاشها على سطوح الدير وقبلها بقليل أسراب البط
البري حين تمر في الاتجاه المعاكس نحو الضاية، بركة الماء، وراء الجبل. فبت ذلك كله في
نفسي شعورا بأنها المخلوقات التي تعلو علينا نحن البشر تناغما مع الطبيعة. فكيف كان لي
أن لا أسمع أن أعظم ما في لغة الإله هي كلمات الغابة والصحراء والبحر.

تبيبحيرين! هذه الكلمة الأمازيغية ذات الإيقاع الشعري في السمع والتي تعني الجنان أو
البستان في لغة أهل البلد، الذين هم اليوم أهلي، كانت فثنتي الأولى - ووحشتي لاحقا. إنها
جنة صغيرة بخصوبة أرضها ودفق مائها واخضرار محيطها، الذي يغدو في أيام الثلج
وشاحا قدسيا، تحضن الدير مثل هدية أنزلها الإله من السماء ووضعها بين تمرغيدة، جبال
النار هنا، وبين الشريعة، جبال الأرز الفاتن هنالك. فكذلك نما لها، مثل فسيلة زيتون، عشق
في قلبي أنا الذي جئت من منطقة القالة شرقاً الساحرة ببحيرتها مَعبرا للطيور المهاجرة
وبمينائها ملتقى للغرباء حيث ولدت لأسرة شاء لها قدرها أن تكون من هذه العائلات التي

تسمى «الأقدام السوداء». فكنت، إذًا، فرنسيا بالولادة لتصبح حياتي كلها من أجل أن أنتهي جزائريا بالهوية.

على سعادة، في غد من الغدوات، إذ خرجت إلى البستان لأجني سلة من المشمش تحضيرا لتحلية الغداء، رأيت في السهل القريب هذه البقرة التي ترعى وحدها أحسبها تنظر ولا ترى وغير بعيد عنها هذا الراعي الذي يحمل عصا وحلما كان سيعود به عند ميلان الشمس نحو مغيبها سائقا غنمه إلى الزريبة، كما فعل الأنبياء موسى والمسيح ومحمد.

سنون، أقدرها بحوالي عشرين، كانت مرت على علاقة أحمد لمين بي قبل أن يبوح لي بأنه تساءل في نفسه إذ دخل الدير أول مرة لماذا بني هنا في تينجيرين وليس في مكان آخر غيرها. وكيف جننا نحن الذين يعمرونه تاركين أوطانا لنا. وهل لنا عائلات وأزواج وأولاد. ولماذا نحن مفتونون بزراعة الأرض بهذا الشكل المنظم الساحر ولا نفعل شيئا آخر غير ذلك سوى الصلاة.

مكتوب!

كذلك نطقت له تلك الكلمة، التي كنت أعلم أن لها وقعا دينيا في نفسه شأنه شأن بقية المسلمين من جيراننا ولا تقبل جدلا. فرضي بها. وخليت للحياة وسط الدير أن تجيبه، بعد أن صار حارسه.

بيني وبين نفسي أقرّ أن فضول أحمد لمين كان له أن أثار في نفسي مجيئي إلى هذا العالم على فطرة فكان من قدرتي أن أكون مسيحيا ولم أتنشأ يهوديا أو مسلما أو لادينيا. لذا إن أنا استرجعت، مما كانت أمي روته لي عني، شيئا رسب في ذاكرتي عن الجنة وعلاقة الأطفال بالكنيسة فهو تعميدي الذي ظل في ذهني خيالا قبل أن أراه بعد سنين عيانا في كنيسة السيدة الإفريقية، بأعالي حي بولوغين، حيث بماء العمادة غسل القس رأس الطفل الصغير الملفوف بالأبيض جسده النىء. فبذلك اللون يكفن المسلمون موتاهم. وفتح أذنه فأودعه السر. فوددت لو أن جسدي لم يتحول فبقي غضا نقيا وأن عقلي لم يتطور حتى لا يشقيني

برؤية شرور هذا العالم وقبحه وحروبه. ثم إن القس كان أعطى الحاضرين في القديس
خبزا ونبيدا، ذكراً للحم المسيح ودمه.

فإنه لم يكن قد مر علي وقت طويل، بعد أن وطئت قدمي تراب تيبجيري، فلمست حجر
ديرها وأوقدت شمعة للمذبح خلال القديس الإلهي وأخرى تلوت عليها من الكتاب المقدس
لأن «كلمة الرب مضيئة تنير العينين» ونقرت الناقوس وصليت وبخرت ودخلت المكتبة
فقرأت والتقيت الإخوان فشممت روائحهم وحفظت وجوههم وأحصيت حركاتهم
واستبطنت همساتهم وصرت أميز أصواتهم واحداً واحداً حين أسمعهم إذا رفعوها
وأصبحت أصادف جيراني من المسلمين حول الدير، إذ رحت أهتم لأول مرة في حياتي
بعالم النحل الحي العجيب المدهش والمثير، حاله حال النمل بلونيه وأنواعه، والحيوانات
والفراشات بأصنافها وألوانها وديدان الأرض والحشرات التي لا تظهر في المدن.

لهي بهجة أن أذكر أنه كان يوماً ربيعياً مفعماً بالفضول ذاك الذي قادني خلاله قدمي إلى
مرتفع الدير حيث خلأيا نحل كنت، برعاية من أحد الفلاحين المسلمين، جدت بعضها من
سيقان الكلخ الجافة المقتطعة صيفا من جوار البستان المقابل للجبل. ووقفت عليها
موضوعة خمسا خمسا في سبعة صفوف، منشرحا متأملا منبها بما ينبعث من داخلها من
أريز العائلات ومن خارجها من طنين العائدات بالرحيق والخارجات للتزود. كذلك، بلا
توقف. وتخيلت الملكة في عرشها الساحر منتشية بغرام ذكورها الواقعين تباعا في مذبح
خادماتها شهداء.

من أجل ماذا ولمن إن لم يكن للذي خلقته يا ربي من الطين، كنت رددت جهرا.

فتناهد إلي ترانيم الليلوييا منبعثة من الجبال المحيطة وتراءت لي أخيلة ملائكة مجنحة
نثرت النور فوق أشجار التنوب فزهت بالتراقصات البلورية على أوراقها، ورشت بالماء
المقدس حقول الكروم، في المنحدر، فتصاعدت من التربة رائحة لها عبير بخور الكنائس.
فتلوت «اجعل صلاتي تتجه مثل البخور في نظرك: يدي مرفوعة كتضحية مسائية».

حتى إذا عدت إلى غرفتي قبل صلاة السادسة مساء سجلت على كراس مذكراتي: النحل مخلوقات الجنة في هذه الدنيا. وهي آية لنا في تحويل المكان الذي تنزل به إلى قطعة من أرض الرب المباركة. فكيف لا يزال كل من اليهودي والمسيحي والمسلم، وهم جميعا في هذا العالم أقل سخاء من النحل، يقول سرا وعلانية إن الجنة له وحده وكأنها عقار ورثه عن أبيه؛ بالرغم من أن آدم أبانا جميعا لم يورثه الإله أي عقار لأنه طرده من جنته بعد أن عصاه. جنتنا، نحن الأشقياء، هي هذه الأرض التي أوجدنا الإله عليها لتكون على صورته، مثل النحل لا نحيا إلا من أجل غيرنا.

تَمَثال العذراء. عَمَى التعصّب

بالرجوع إلى ما حطني في أرض هذا البلد، وأنا اليوم على بُعد خطوات من قبري، أجدني لا أتذكر بشكل جلي وحيّ ما عرفته في حياتي، التي لم تكن مضطربة كثيرا ولا شقية جدا أو سعيدة تماما. ذلك، لهذا الذي يشبه حجابا ما انفك يصدني عما لا ينبغي لرجل دين مثلي أن يذكره من حياته الشخصية الحميمة -والحقيقة أن حياتنا غابة مظلمة كما يقول دانتى- أو أن يعود إليه من ماضيه وكأن رجال الدين بلا ماض ولا هم يتشوفون إلى مستقبل لأنهم منذورون لقدّر عليهم أن يعيشوا خلاله حاضرهم لأخراهم.

إنه شعور ما فتى يلازمي؛ وكأن حياتي لم تتوزع بين أزمنة الوجود الثلاثة فلم أحلم بشيء كنت سأحققه ولا ندمت على شيء ضيعته! أعترف أنني منذ دخلت دير تيّبجيريّن أغلقت عن قلبي منافذ اللذة والشهوة والرغبة. وأسقطت من عينيّ ألوان الميز بين بني آدم وحواء. ونظفت ذاكرتي من ترسبات الحقد والكراهية.

حسب أمي، فإنه صادف أن كنت في سن العاشرة لما أقيمت الاحتفالية الكبرى، الضخمة والواثقة أخيرا من أن هذا البلد تم تطويعه نهائيا، بعد مائة سنة من الاحتلال، ليكون متسع أرض إضافيا للميتروبول. وأصبح السلام فيه منتشرا مثل هوائه. وأمسى أهله خاضعين

منكسي الجباه لإرادة هذا الأوروبي الذي أزاحهم عن أراضيهم حيث أنشأ مزارعه وأبعدهم إلى خارج المحيط الذي شيّد داخله مدنه وقراه.

ولأنني كنت صورة لهذا الأوروبي، كذلك رأيت نفسي، تساءلت لأمي مرة عشية الحرب العالمية الثانية، تسع سنين على مرور تلك الاحتفالية، كيف وجدنا أنفسنا بين قوم لا شيء يربطنا إليهم؛ فلا أجدادي لأبويّ كانا منهم ولا أرضهم التي أصبحنا فيها هي أرضنا.

فردت:

ذلك كله قدّرنا.

كانت أُمي، مثلما علمت ذلك من قس كنيسة مدينة القالة يوم وفاتها، امرأة فقيرة معيمة هاجرت مع عائلتها إلى هذا البلد، مثل والدي مع عائلته، التي كان ربها، أعني جدي، من المنفيين. لا أخجل أن أقول إنه ربما كان من المطرودين. وماذا لو كان أحدَ قطاع الطرق المطلوبين الذي ما دخل سجننا إلا فر منه فكنت أنا سليل عائلتين جمعت بينهما أرض لم تكن في الأصل أرضهما وحطهما قدرهما وسط بشر مختلفين في كل شيء عنا!

فإنني كنت أجد ذلك في لغة الكلام وأراه في نوع اللباس وأذوقه في طبائع الأكل والشرب وألمسه في العلاقات وأنشدّ إليه في العوائد. كانت أماكن عبادتهم، التي راحت على مر السنين تقل عددا قياسا إلى عدد الكنائس والأديرة والمناسك، تثير استغرابي لبساطتها بساطة حياتهم.

ولم يكن يخفى علي ما في أعينهم، لدى من كنت أقابلهم في الطريق أو أقاطعهم في سوق أو أتحدث معهم لضرورة ما، من محاذرة وتضجر واشمئزاز بالكاد يضمرونه بسبب هذا الميز بيننا وبينهم في الحياة الذي يجعل فقراءنا، وكنت منهم، يظهرون أكثر حفا من الميسورين منهم فما بالك بفقرائهم الذين كانوا يمشون حفاة شبه عراة؛ وهو ما ملأني

تشاؤما بأنهم سينفجرون يوما غضبا وبأن غضبهم سيقودهم حتما إلى عنف دموي يهدم هذا الحاجز الذي بدأ إنشاؤه منذ سقوط إيالة الجزائر لفصلهم عنا أو لفصلنا عنهم.

صادف أن كنت بلغت الثامنة عشرة عام تأسيس سيدة الأطلس في تيبجيرين، سنة واحدة قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. إذ أذكر هذا التاريخ أشعر بأني أفقد شيئا لا يعوض من حياتي القبلية ومن جسدي؛ لكأني عشت بلا طفولة. ذلك، أنه لم يكد يترسب شيء منها في ذاكرتي، اللهم إلا شبح معلمتي المتعصبة التي تكون هي التي وضعتني من غير أن أشعر في طريق الرهينة. لست متأكدا. إنه مجرد توهم.

أما مراهقتي، مرحلة الفوران البيولوجي والتحفز والتمثل والطيش واكتشاف اللذة، فإني عشتها متخلصا بالكاد من سودويتي التي كانت تقلق ذهني وتقبض على حلقي حد الشعور بالاختناق جراء عجزني الداخلي عن الإجابة عن أسئلة الوجود والمجيء إلى هذا العالم وعن الموت وما بعد الموت، إن كان هناك بعد، وعن الإله وعن مكانه وزمانه وعن الخطيئة الأصلية وعن المسيح وخلصه وعذرية مريم وعن جدوى هذه الشعائر كلها وقدسية الإنجيل.

حتى إذا بلغت سن الخامسة والعشرين رأيت تشاؤمي تحولت بداياته صداما دمويا في كل من مدن سطيف وخرّاطة وغالمة، منذرا بصدام قادم أشد غضبا وعنفا كان سينفجر بعد تسع سنين؛ بينما كانت الميتروبول تعيش هوس تحرير باريس من النازية على وقع نواقيس الكنائس.

وماذا لو كانت أصوات تسعة ملايين من أهل هذا البلد مقابل صوت ثمانمائة ألف من المعمرين قد سُمعت بعد أحداث الثامن من مايو فانتصرت الحكمة الإنسانية على المصلحة الضيقة والتعنت والوهم والأنانية؟

كذلك كان صديقي الإمام الشيخ عبد الرحمن سيفترض لي يوما ونحن واقفان على جانب مضمار خيالة البارود إحياء للذكرى الأولى للاستقلال.

فقلت بإحساس رجرة الانكسار النهائي في كياني:

لو فُدرّ لذلك أن يقع لم تكن كل تلك الدماء سُفكت خلال سبع سنين ونصف السنة ولا غارت الجراح التي لا بد لها كي تندمل من مدة تساوي أو تفوق فترة الاحتلال.

فقد كان لمثل ذاك الانكسار بداية عرفتها لما دبيت في حي الميناء القديم لمدينة القالة، الذي كانت عائلتي تسكنه، ودخلت المدرسة فوجدت حاجز الفصل قائما. إنني لا أذكر أن طفلا من الأهالي كان عتب بابها خلال السنين الست التي قضيتها فيها. وإذ التحقت بمدرسة الآباء البيض لم أعد أعرف فحسب أن مدرستي هي حاجز الفصل والميزم الأول أمام أبناء الأهالي، لأنها جزء من الاحتلال وتاريخه، ولكني لُقنت أيضا أن غزو بلد كهذا البلد إنما كان من أجل مجد الصليب.

ذات مرة، وهو يقدم لنا درسا عن دور الكنيسة في إرساء قواعد وجودها في هذا البلد، كان أستاذ التاريخ أبدى لنا إعجابه بالرواد الفاتحين. وقال إن المرء لَيتمنى لو كان أحدهم، مظهرا لنا افتتاحه بسماحة أسقف الجزائر ديبيش الذي أنشأ في سطاويلي أول دير حليف للاحتلال، على أرض خصبة مساحتها تفوق ألف هكتار، عمّره أربعة عشر راهبا، فتحول إلى أشهر مزرعة لإنتاج العنب والخضراوات. لا أنسى أن ذهني شرد بي، بينما راح الأستاذ يفصل في أنواع العنب وألوانه وما يوجّه منه إلى المائدة وإلى التحويل في المعاصر ويعدّد الخضراوات حسب فصولها، فتخيلتني صعّدت إلى إحدى جنات كتابي المقدس.

ثم، ها قد أدركني، بعد زمن، عبء الانشغال بالعلاقة الغربية التي ربطت بين رجال الدين في الكنيسة وبين المعمرين، الذين كان الجيش يفتح لهم الطريق إلى الأراضي الخصبة فتنتزع من أصحابها بالطرد أو الشراء أو المصادرة.

ففي مكتبة الدير، هنا، وجدت في آثار الرهبان الذين سبقوني أن تبيّجيرين، في الأصل، مزرعة أنشأها معمر سابق على نموذج مزرعة سطاويلي. ولجودة نتاجها وغزارته، مُد خط السكة الحديدية باتجاه منطقة الشفة لنقل الخضر والفواكه والمعادن، في الناحية، نحو

ميناء الجزائر ومنه إلى مرسيلىا. على أنه تم، في وقت لاحق، نقل المزرعة بعقد موثق إلى الرهبان الوافدين من سطاويلي. غير أني لم أعر في ما طالعت من تلك الآثار على ما يشير إلى مصدر المال الذي اشترى به مزرعة تيبجيرين، التي كانت تتربع على حوالي أربعمائة هكتار، وأنشأوا فيها سيدة الأطلس، قبل أن تؤمّ غداة استقلال البلد فلم يترك منها حاجة الدير سوى المساحة الحالية.

هو قدرى أني كنت، إلى جانب الأخ سيلستان، ضمن بعثة الآباء البيض التي أرسلت إلى مقبرة سطاويلي في مهمة لنقل تمثال العذراء الكبير. كان التمثال يظهرها حاملا وشيكة الوضع على غير ما كانت عليه تماثيلها الأخرى التي تبدو في بعضها حاضنة طفلها المسيح. كانت تعلو هلالا وعلى رأسها اثنتا عشرة نجمة - إنى أتذكر عمليات استرجاع الحلفاء الآثار الفنية التي استحوذ عليها النازيون في البلدان التي احتلوها وشحنوها في القطارات إلى ألمانيا.

فقد شحنا التمثال في القطار، كما نقل تحفة أثرية نادرة. ومن محطة المدينة حولناه إلى تيبجيرين في شاحنة حيث ثبتناه، في أعلى الجبل، على صخرة الأمير عبد القادر - اليوم تلاشى حماسي الذي كنت أحسسته لحظة التثبيت لأن ذلك، كما قال لنا القس المرافق، من أجل غرس إرادة الرب في هذا البلد.

إثر رجوعي من تثبيت التمثال إلى دير تيبجيرين، وقد أديت صلاة المساء وتناولت العشاء ثم التحقت بغرفة الضيف لأنام، قبل أن أعود في الغد إلى مدينة الجزائر، سمعت مناديا من داخلي.

هنا سيتجلى لك نور الرب. وهنا ترعك العذراء.

أمين، قلت جاثيا أمام صورتها.

بعد شهر، كانت الحرب العظمى الثانية قد انفجرت أشد من سابقتها عنفا وتقتيلا وتدميرا ليهوي العالم إلى حضيض جنونه. ولولا أن قدمي كائنا مسطحتين لَجُنْدت فاحترقت حطباً في أتونها أو في نار حرب أخرى، في هذا البلد، بعد تسع سنين من ذلك، وقد بلغت الرابعة والثلاثين؛ العمر الذي لم يكن ليعفيني من استدعائي إلى الجيش كاحتياطي فأتورط في تلك الحرب الأخرى، القاسية والمهلكة، التي في عامها الخامس، سنة ألف وتسعمائة وتسع وخمسين، كان جيش التحرير الذي يخوضها ضد الاحتلال سخر سيدة الأطلس لمعالجة جرحاه. ذلك، لوجود تَبْجِيرَيْنِ بين جبال محصنة لا تغامر بدخولها قوات الجيش الفرنسي.

فبصفته طبيبا صار الأخ لوقا، وأنا معه كمرض، تحت تصرف قيادة ذلك الجيش بالرغم منا؛ فإننا كرهبان لم يكن لنا أن ننحاز إلى طرف ضد طرف آخر في تلك الحرب.

الراهب يجب أن يبقى راهبا في الأحوال جميعها وتحت أي شرط.

كذلك قال لي الأخ لوقا إثر أول لقاء لنا أحد ضباط جيش التحرير الذي كان جاء يقدم لنا شفهيًا المطالب التي علينا الالتزام بها. فآنها، لم يكن مطروحا لا من قبله ولا منا أمرُ كتمان السر.

نحن نعرف أنكم حين تُسألون عما تقدمونه لنا لن تجحدوا. وإننا نتفهم تماما، قال لنا الضابط بنبرة ودية.

فرد الأخ لوقا:

أنتم أو هم بالنسبة إلينا سواء لأننا في خدمة الرب.

كنا نعتبر أنفسنا نقدم خدمة إنسانية بلا تفريق، لا بين أعراق وديانات ولا بين متحاربين. وذلك ما كان لا يخفى على ضابط جيش التحرير فلم يحمّلنا، لكونه متعلما متفهما، أكثر مما لا نستطيعه.

فإنه بعد شهور من ذلك، وأنا أخيط جرح جبهته جراء شظية من قذيفة روكيت، كما أخبرنا في عمق الليل والصمت والبرد ونقرات تساقط المطر المسموع في ساحة الدير التي كان فيها مرافقوه يقيمون الحراسة، كان قال للأخ لوقا:

سننتزع حريتنا. وسيعم هذه الأرض السلام. وستكونون منها وفيها. وستستعيدون ديركم ومعه تبيحيرين.

في تلك اللحظة، أشعرتني قول الضابط بندم على تثبيت تمثال العذراء فوق تلك الصخرة. وها أنا اليوم أعتبر الفعل في جملته إهانة إلى ذاكرة أهل البلد المقدسين لرمز شخصية كالأمر عبد القادر، نتيجة استمرارية عمى التعصب من كنيسة التي كان لا بد من أن يمر عليها وقت طويل، في هذا البلد، قبل أن تراجع رؤيتها ونهجها تجاه أهله وعلاقتها معهم وتتخلى نهائياً عن شعار الكاردينال لاقيجري «بالسيف والعربة...»، مبقية على «الصليب».

ليلتها، بعد مغادرة الضابط ومرافقيه الدير، قرأت في غرفتي «لا ترد على الشر بالشر». و«اللطفون، المسالمون، صانعو السلام». وقرأت أخيراً «لا تقل أكافئ شرا الشر الذي لاقيته بل ضع أملك في الإله أن يخلصك». ثم استسلمت لنوم هادئ.

في بعض أوقاتي المفلته مني، بسبب معضلة الاحتلال وشكي في مبدأ السواسية، كانت نفسي تظلم عليّ فأرى جيراننا من المسلمين لا ينظرون كلهم إلينا نظرة صداقة؛ لهذا التراكم التاريخي الضخم من العنف المتبادل من فلسطين إلى الجزيرة الإيبيرية إلى ما وراء جبال الپيرينيه. وكنت، من جانبي، لا أستطيع أن أسمو إلى وصية «أحبّ عدوك»، برغم أنني لم أكن عداوة لأي أحد، ولا أحد على ما أذكر أظهر لي عداوة؛ إن لم تكن هذه المسبقات الناتجة من تعصب مني على الآخر، الذي هو أصيل هذا البلد، ومنه تجاهي بسبب وجودي الغريب على أرضه. وتأمّلت أننا في مثل هذه الأحوال نشبه الحيوانات التي تدفعها غرائزها إلى تحديد مجالاتها الحيوية والذود عنها وطرد الغريب عنها أو قتاله أو افتراسه.

حتى ولو أنني لا أملك بيّنة على الأمر فإنني لم أكن الوحيد في دير سيّدة الأطلس من كان يحس هذا الحاجز النفسي العالي، الذي لم يكن يقل سمكاً بالنسبة إلي عن الحاجز الاجتماعي السابق، المؤرق جراء آية «سوف تحب أخاك في الإنسانية كما تحب نفسك». فقد لبثت دهراً أكاد لا أرى لي أخاً في الإنسانية سوى الذين هم من ملتي. ثم، ألم تكن كل ديانة توحيدية تقصر الأخوة في العلاقات على المنتمي إليها!

عشت أيام الأسبوع كلها والشهر تلو الشهر والعام بعد العام مع الراعي مرزوق ومع الحارس أحمد لمين، وغيرهما ممن يشتغلون معنا في الدير على البستنة والفلاحة ويبيعون لنا نتاجاتنا في سوق المدينة الأسبوعية ويأخذون من عائدها نسبا لهم، وبرغم ذلك ظل هناك في زاوية معتمة من ذهني ترددٌ لجمني عن أن أراهم إخوة لي كما أرى، مثلاً، كريستوف أو لوقا أو كريستيان.

غير أننا غالباً ما نجد في هذه الدنيا من الغرابة ما يدهش. إنه ليكفي أن ننصت قليلاً للقلب حين يدعونا إلى الاستماع إلى نبضه لماذا هو نبض ولمن إن لم يكن للإله الذي وضعه في صدرنا بالعدل نفسه وللوظيفة ذاتها: أن نحب غيرنا. أنا، كنت استمعت لقلبي ولم أشك في أن يكون صديقي إمام جامع المدينة الكبير، الشيخ عبد الرحمن، قد استمع هو بالمثل لقلبه لما التقينا أول مرة في جنازة أحد أولياء المنطقة من زاوية بوحمامة.

لعله من يومها، إذ كنت جئت لأقدم التعازي باسم الدير وباسمي، صرنا ننادي بعضنا بعضاً «الشيخ». فهي صفة لا يحظى بها عند أهل البلد إلا معلم أو أستاذ أو رجل دين محترم أو صوفي. ونعتي إياي بها كان من أطيب ما أسمعته فيسعد به قلبي ويجعلني أشعر بالقرب من الإمام ومن بقية المسلمين في الجوار.

على أننا، أنا والإمام، لم نجرؤ يوماً، لأننا تجنبنا مجاملة النفاق، على مناداة بعضنا بعضاً بالأخ في ما كان يجمع بيننا من أحاديث كانت دائماً ودية وموسّمة بالاحترام المتبادل. فكلمة أخي، كما أدركت من دلالتها اللغوية عند صديقي الإمام، وهو ضليع في اللغة العربية وخبير في اللهجة الجزائرية وعارف بأمازيغية الوسط والشرق، ذات شحنة عاطفية تحيل

على رابطة الدم والدين؛ وهما عاملان متجذران في وجدان أهل هذا البلد ظلا حاسمين جدا في الإبقاء على لحمة التماسك الاجتماعي صلبة عندهم وفارقة بينهم وبين الدخلاء الذين كُتاهم نحن، معمرين وأقداما سوداء ورجال دين وجيش احتلال، برغم ما رمت به الميترولوجيا من ثقل عسكري وتبشيري ولغوي وثقافي من أجل تحويلهم أو استبدالهم. إنني أشعر بخجل أن أضيف أو إبادتهم كما لم يخجل سدنة الإمبراطورية الاستعمارية من قول ذلك في كتبهم وضمن آرائهم بشأن الاحتلال.

لكن ما قربنا بعضنا من بعض، أنا والإمام، أكثر من غيره، كان هذا التقاطع في الإيمان بالإله وفي الجزاء والحساب والدين والآخرى وفي المعاملات الحسنة بين البشر وقدسية النفس وتحريم الزنا، مثلها مثل العلاقات الشاذة، وصيانة الصدق والعفة ومراعاة الجيرة التي لها حرمة العائلة. وكان الإمام، كما كنت من جانبي، لا يثير أبدا ما هو حرام عندهم حلال عندنا. كنت، لاطلاعي على قواعد الإسلام وقراءتي القرآن، أجد إيمان المسلمين بالرسول جميعا، بلا تمييز، أمرا يدعو إلى التأمل والتفكير.

مرة قلت لصديقي الإمام، ونحن جالسان في سقيفة مقهى بوسط المدينة، أنا في ثيابي المدنية من سروال وقميص أعتمر تقيتي التي لا تفارق رأسي إلا حين أنام، بينما هو في عباة وعمامة وبمحيّاه البشوش.

تعرف، يا الشيخ عبد الرحمن. منذ فترة صار قلبي يحدثني، في لحظات خلوتي إلى نفسي، بأن الإله الذي خلقنا إنما بسط لنا هذه الدنيا بحسنها وبهائها وخيراتها لننعم بها ونتقاسمها فيفرح لنا وبنا.

لأن الله خلقنا على صورته. وهو لا يرضيه منا أن نتشوه بأي شر. فلا جميل على أرضه سوى الإنسان. وأجمل من في مخلوقاته من البشر أنبياءه. إنهم جميلون جميعا، هيئة وروحا. ليت الله، يا الشيخ أميدي، أن يجعلنا قبسة من جمالهم.

كنا يومها على بعد عشرة أعوام مما كان سيدمي هذا البلد مدة عشرية كاملة في حرب أهلية رهيبة ومريعة.

يومَ صرثَ واحدا منهم بهويّة جديدة

أنا الذي تعود أصولي إلى من يُسمّون «الأقدام السوداء» إذ نزلت إلى مدينة المديّة، التي كانت راية الاستقلال تزين كلّ شارع فيها وكل بيت وكل دكان وصومعة مسجدها الكبير نفسه، فدخلت مكتب الحالة المدنية، بلباس الراهب وعلى رأسي تقيتي المعروف بها، حيث وجدت صفا أمام الشباك ممن سبقوني لاستخراج وثائق بطاقة الهوية الجديدة، لم أقف إلا لحظة وها همسة انطلقت من هذا الذي كنت خلفه، وقد التفت إلي فحييته فرد ونطق للذي أمامه كلمة الشيخ، التي سرت من واحد إلى آخر، فناداني ملتفتا من كان على بعد رجلين قبله.

الشيخ أميدي، تفضل!

وخاطب الذي قبله.

وسّع للشيخ!

شكرتهم بلغتهم، لغتي الجزائرية التي تعلمتها منهم. فقال موظف الشباك: مرحبا. فقلت: دامت الأفراح. قال: لنا جميعا. ثم قدم لي مستخرجا من بطاقة الهوية بدمغة الدولة المستقلة. وقال: تفضل يا شيخ. ومبروك. فقلت: شكرا. ثم خرجت على فرح دلفين لا ينقصني سوى حوض مائي. إني أبتسم.

فيومئذ، وقد بلغت سن الثانية والأربعين فصرت مثل الملايين الآخرين أحد مواطني هذا البلد، كنت قلت للأخ لوقا، هنا في مكتبة الدير، عقب عودتي من دار البلدية:

طالما كنت مساعدك ورفيقك في زيارتك الطبية إلى المداشر، قبل الحرب وأثناءها، فشكوت إليك شقاء نفسي لحال الأطفال الصحية الهشة الذين لأي مرض يموتون في صمت أمام أعين عائلاتهم المستسلمة.

فإننا كنا في حديث عن آثار الفراغ المأسوية التي كان سيخلفها انسحاب إدارة الاحتلال الفرنسية من المعامل والمدارس والمصحات ومن الخدمات وما سبق ذلك من إتلاف منتظم للمحاصيل الزراعية عند مغادرة الكولون مزارعهم وعما طبعت به المنظمة المسلحة السرية(1) أفعالها من تفجيرات واغتيالات وتصفيات طالت المؤيدين للاستقلال دون تمييز ومن ردّ فعلٍ ثأري من الأهالي تجاه أقدام سوداء وأوروبيين لهم سوابق ظلم معهم؛ بينما كانت الانتقامات بالجملة من الحركى تشهد بدايتها الدموية الأشد فظاعة لتنتهي بنهايتها حقبة تاريخية كُتبت بالدم وفي الدم خلال قرن واثنين وثلاثين عاما.

فطمأنني على أن الوضع لن يستمر طويلا على تلك الحال.

وقال:

أعرف. وكان ذلك يؤلمني. ولم تكن صلواتنا تجدي نفعا.

فقلت:

أقدر أنه حانت ساعة التكفل بهذه الطفولة التي يحتاجها البلد لمستقبله.

فرد:

البارحة أنهيت وضع مخطط للوقاية الصحية الموجه إلى أطفال الأهالي في الجوار. وحصلت على موافقة من رئيس الدير لتخصيص جناح من البناية للغرض. أنا أثق بك. وسأعتمد عليك كما هي العادة.

بالنسبة إلي، كان ذلك استقلالي الخاص الذي أحييته في قلبي. كنت أعي أنه لا عدالة تتحقق على هذه الأرض بين مستعمر ومستعمر. إطلاقا. فما بالك بالحرية!

وتنفيذاً لمخطط الأخ لوقا، فإني قضيت ست سنين في مملكة أطفال تاجها البراءة؛ ما جعلني أسعد الخلق وأنا أحقن منهم هذا أو ذاك أو أفصده أو أجبره أو أرذّه بمطهر أو لأغيه أو أخرج له من جيبي حبة حلوى أو أسأله عن اسمه أو أطلب إليه أن يستظهر لي محفوظة أو جدول ضرب أو أن يجيبني عن قاعدة حسابية أو هندسية أو يعدد لي فصول السنة أو يذكر لي بم يحلم أن يكون عندما يكبر؛ فأجابني يوماً أحدهم من الصف الدراسي الرابع، وقد أعطيته قنينة صغيرة من مرهم مضاد لفطريات القرع، بأنه سيكون طبيبا مثل الأب لوقا. وقالت صبية، من الصف الدراسي نفسه، أعطيتها دهانا لمعالجة القوباء على خدها، إنها ستكون معلمة. ففي كل يوم من الاستقبال كنت أرى في وجوههم تحفزا جديدا وفي عيونهم بريق لهفة على الخروج إلى نور المعرفة.

ما خلق الإله الأطفال إلا ابتلاء لنا، قلت للأخ لوقا مرة في نهاية الفحوص.

فرد، وهو يفرك يديه بالكحول.

إنهم صورة جماله التي ما بعدها صورة حسنة. كيف لا نحافظ عليها شكرا له.

ست سنين كاملة كانت قد مرت قبل أن ينقطع تردد الأطفال على جناح المستوصف فلم يترتب على ذلك، كنهاية جميلة وسعيدة، نوعٌ من الراحة الجسدية والعصبية فحسب ولكن أيضا سعادة روحية لي وللأخ لوقا عززت أو اصر الثقة بيننا وبين جيراننا المسلمين. فكم كان مبهجا لنا أن صار التكفل بالمواليد الجدد والأطفال المقبلين على دخول المدرسة من مهمة المصالح الصحية للدولة الجديدة!

أهل هذا البلد لهم ذاكرة الفيّلة. إنهم لا ينسون من ظلمهم ولا من أهانهم أو خانهم، قال لي الأخ لوقا ونحن ننظف قاعة العلاج التي كنا نستقبل فيها الأطفال.

فقلت.

ولكن لهم قلوب مثل بيوت الإله مفتوحة لمن يخلص لهم العشرة ويمد لهم يد الصداقة ويحفظ لهم العهد.

أجدها كرامة لي، وهي كذلك عند أوليائهم المبعجلين، حباني بها الإله أن عشت بينهم، متفهما وضعهم تحت الاحتلال، مستمعا لآلامهم جراه، مسعفا أطفالهم، بروح أني واحد منهم، معالجا أنا والأخ لوقا جرحاهم خلال حرب التحرير في الدير أو في الجبال، بالنسبة لجنود جيش تحريرهم؛ فإننا ونحن نعود ذات مرة ليلا من إحدى الكازمات حيث عالجتنا ثمانية منهم مصابين بحروق جلدية جزئية من الدرجة الثالثة بسبب قنابل النابالم، قلت له:

أخي لوقا. شعبٌ يواجه مثل هذا النوع من الأسلحة المحرمة لا يمكنه إلا أن ينتصر في حرب تحرره.

فرد:

شجاعة أولئك الجرحى تنتزع التقدير.

وتلطف لي بنبرة تعجب من معنوياتهم المرتفعة:

أجدهم أشبه بمن لا يعانون إلا من ضربات شمس على شاطئ اصطيف.

فسألته حينها، لأنه أكبر مني سنا وأعمق تجربة، إن كان يرى نهاية قريبة للحرب. فأجاب بأنه حين نصل نصلي من أجل ذلك. فنطقت: أبونا الذي في سماء هذه الليلة المقمرة يكون سمع منا هذه النجوى حتى قبل أن نصل ونصلي. فقال: آمين.

فقلت.

علمتني الحياة أشياء كثيرة، هي التي واجهت بها متطلبات حاجاتي الحيوية. ويسرت لي علاقاتي مع غيري. وتلك عناية إلهية. ولكن فن التمريض كنت أنت أخي لوقا من علمتني إياه فصرت مساعدك.

ومنك أنت أخي أميدي أنا أتقنت فن الغسيل.

كنا أنا والأخ لوقا نتناوب على غرفة الغسيل في الدير. وكان يجдени على حرص شديد تجاه كل ما لا بد له من أن يظهر بعد غسله طاهرا. ذلك أن الطهارة، التي طالما شغلتنني عند جيرانني المسلمين في وضوئهم وغسلهم وفي ثيابهم التي يصلون بها، اكتشفتها أيضا في طبيعة تيبجيريين: فتنة الرب.

أمس فحسب قالت لي نفسي، خلال صلاتي الصامتة: اخرج بي الآن نحو الغابة. فخرجت. فقلت: لن أتنفس في أي مكان غير هذا مثل هذا الهواء الذي كأنما هو من نفس الروح القدس. ولن أشم في غير هذا المكان مثل هذا الشذى الذي تمزجه يد الإله من إكيليل الجبل والريحان والزعتر ومن أشجار العرعار والصنوبر والضرو والسرو والبلوط والأوكالبتوس والزبّوج ومن الدفلى. ثم انظر يمينك جانبي مصب النبع كيف يخرج ماؤه من بين تشققات صخر الجبل. فنظرت. والتفت خلفك تر هذه الأشجار المثمرة الأخرى من تين وزيتون ولوز ومشمش وبرقوق وتفاح وإجاص وكرز. وانظر شمالك إلى هذه المخلوقات المقدسة في كتابنا، كما في كتاب المسلمين، التي تدر عسلا مصفى! فنظرت.

ثم قالت، أخيرا.

مدّ بصرك الآن هناك إلى الأسفل حيث مربعات البطاطا والجزر واللفت والطماطم والفول والجلبان والعدس والفلافل الحلوة والحارة والخس الأملس والمجدع والكوسة والقرعة والقرنبيط والكرنب واللوبيا بيضاء وحمراء، التي تتغذي كلها من السماد الطبيعي الذي تخلفه نعاج زريبة الدير وعنزاتها، التي يرهاها مرزوق. وتشرب من نظام السقي، الذي صممه الأخ پول. وتتعهدها بالرعاية أيادي الإخوان وجيران لنا من المسلمين.

أنا وصديقي الإمام الشيخ عبد الرحمن

ليس سوى ابتلاءٍ أنْ جئتُ إلى هذه الدنيا لأمشي في طريق ألم جديد، كَألم ولادتي لأمي، رحمتُ أصعده حاملاً خطيئة أبي الأصلية فأشهد اليوم هذا العذاب الآخر الذي يصيب غيري بدون حق فيئزُّ منه روعي.

كذلك قلت لصديقي الإمام، لدى لقائنا في خيمة عزاء في مدينة المدينة، ونحن في حديث بيننا عما أصبح عنف الحرب الأهلية يخلفه من أوجاع وأحزان في أوساط العائلات. وكنت تساءلت له عن يتحمّل مسؤولية إراقة الدم، وفي ذهني ما تسبب فيه النزاع السياسي على السلطة، فقال: «لا تقتل أبدا» هكذا يوصي الإنجيل. فقلت: «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»، هكذا يقول القرآن. فقال: ويقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

فتحيّرت له:

أترى حالنا اليوم في الديانات، يا شيخ عبد الرحمن؟

فرد:

جميع الديانات التوحيدية على نعومة الحرير وبرودة الثلج ووهج النار.

ثم تلّظ لي، بأثر بحة في حلقه لما أثاره فينا وفي المعزين اغتيال الصحفي ذبحا في طريق عودته من العاصمة لقضاء عطلة الأسبوعية مع عائلته التي كان ربها تاجرا يشتري حصة من عسل الدير بالجملة ليعيد بيعه.

أنت، يا شيخ أميدي، ممن يصطفاهم الله ليكونوا أسوة لمن يتبعون دينهم.

رعاك الإله وحفظك، يا شيخ عبد الرحمن.

كان صديقي الإمام على درجة سماحة لا نظير لها في التحاور، حتى وهو يدرك أن ذلك لا يرضي كثيرا ممن يؤمهم في الصلاة. كان على إيمان جميل وطهارة ناصعة.

ونحن نفترق عند مخرج بيت العزاء، احتفظت لنفسي بالقول إن الإله كان سيدمر هذا الإنسان منذ عصيانه الأول الذي تولدت منه الخطيئة. ولكن بدل ذلك حرمة الخلود في النعيم. وأنزله إلى ويل هذه الأرض. ومدد له في الأجل إلى حين. وخلق الموت ليرجعه إليه.

بيدَ أنني أجد من الطريف أن أستعيد بعض اللطائف التي كنا، أنا والإمام، نتبادلها؛ منها، كما قال لي مرة، أن خمرتي مقدّمة في الدنيا وهي فانية لأن يد الإنسان صنعتها وحفظتها في قوارير أو في دنان. وأن خمرتة هو مؤجّلة إلى الآخرة لتكون سرمدية تجري أنهارا أطلقتها يد الإله. فإني كنت يومها جئته صيفا إلى منزله بسلة من عنب المائدة فسألني، مبتسما إن كنت عصرت. وكان مرة أخرى تظرف لي، وهو ما أشعرني منه برعشة غريبة، لأننا كنا في حديث عن العائلة والزواج والجنس إذ جئت أبارك له ختان طفله البكر.

تصور، يا شيخ أميدي، هذه الدنيا خالية من المرأة وكنا نحن نولد من غيرها فننزل مثلا مع المطر من السماء كضفادع، ناطقا التشبيه وهو يضحك، أو نبت من الأرض كالفطر رجالا، هل كنا نعرف الحب والغيرة والحنان واللذابة الجنسية.

ألا يحتل ذلك كله قلب المؤمن بدل أن يحتله الإله، قلت متهيّبا له.

فرد:

بل إن الله ما خلق القلب إلا لتحتله امرأة.

وضحك لي، مرة أخرى.

الله أطاب لي أربعا في الدنيا ووعدني بحور عين بلا حصر في الآخرة.

فقلت أبادله الضحكة.

تلك إرادة الإله العادل في توزيع نعمه بيننا فأعطاني قلبا لأحمله فيه وحده.

لطالما وجدت لدى الشيخ عبد الرحمن حسا لا يختلف عن حسي تجاه عوز الضعفاء وحاجة الفقراء الذين كانت الزاوية التي ينتسب إليها ملجأهم مثلما كان الدير بالنسبة إليهم في العلاج والرعاية الصحية لسنين. كان على أخلاق تسمو على ما هو من الكبرياء، التي تحجب العين عن أن ترى الظلم، وعلى ما يرشو النفس من الشهوة والبخل والشره.

إلى يوم مماتي سأبقى أنتظر الساعة التي يرتفع فيها من البيع والكنائس والمساجد صوت الإله متناغما من أجل السلام والمحبة، قلت له عند باب الخروج من الزاوية التي كان دعاني إلى غداء فيها على الكسكس مع شيخها.

فقال:

ليس لنا نحن خلقه غير ذلك.

ثم تصافحنا مفترقين.

على بعد المسافة الزمنية اليوم، إذ أراجع نفسي في ما حل بنا في الدير، إثر صدور بلاغ التهديد الذي كان إعلان حرب لم نكن سببا فيها ولا طرفا، أجد أن ثقتي لم تتبدل، شأني شأن إخواني، في أن مسلما مؤمنا، مهما يكن مذهبه أو تكن طائفته التي يتشيع لها، يسمو بنفسه على أن يظلم غيره. ذلك، لأنه يعرف في الحديث القدسي أن الإله حرم الظلم على نفسه، ولا سيما إن كان هذا الغير من أهل الكتاب.

فتلك حقيقة عشتها أنا وإخواني بصفتنا مسيحيين بين مسلمي هذه البلد. فإنه لم يلحق بنا أذى، خلال حرب تحرير كانت قاسية جدا. ولا هُددنا في أرواحنا. أو كنا كابدنا أي عسف بعد الاستقلال، إلى أن تغير كل شيء في عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين. فكان نشوب

حرب أهلية حطمت القلوب ومزقت الأرواح وفككت أواصر التعايش؛ في حرّها القاسي عرفت بعض إخوان الجبل ممن ترددوا على الدير طلبا للعلاج أو الدواء، مثلما كان آباء بعضهم من الفقراء المعدّمين ترددوا على الدير للحاجة في أعوام المجاعة والأوبئة، وأنا أعلم أن حربهم التي يخوضونها لا تخرج عما ضُبط في مفكرة القوى الخفية وبرامجها هنا وهناك.

قال لي الأخ كريستوف مرة.

لم يكن لإخوان الجبل، كما تعرفهم أنت أكثر منا، قابلية لأن يسمعوا منا أن الفضيلة هي التي أجدنا إلى تبيخيرين مَقودين بيد الرب. ولم يكن لنا لنحيد عنها إلى أي كراهية. لذلك لم أجادل أحدهم يوما في ما هم يفعلون. وها نحن هنا في الدير نقبل نزولهم علينا مثل قدر لا رادّ له. فلماذا، إذاً، الديانات إن كانت لا تعصم من الخوف ولا تعمر القلوب بالشعور بالأمان ولا تربط أواصر المحبة بين مخلوقات الإله؟

أخي كريستوف. أنت ترى أننا لم نجئ هذه الدنيا بإرادتنا ولا صرنا متدينين برغبتنا. إنما ولدنا على طهارة غير مذنبين ولا مخطئين ففتحنا عيوننا في حواض الإيمان أو الوثنية أو الإلحاد أو اللادين أصلا.

كان الأخ كريستوف على حساسية مفرطة ووعي ثاقب وروح متمردة ولكن بنفس زكية. فإني كنت الوحيد من جهر لي بقلقه من ارتياب إخوان الدير أنفسهم في مزاجه المتقلب ومن لغة حديثه التي تقترب من الشعر بقدر ابتعادها عن العادي من لغتهم هم.

إن اكتسبنا شيئا من الدين فبالوراثة. ونحن، أخي أميدي، إن جِدنا عنه بعقلنا وإرادتنا لقينا جراء ذلك الطرد والإقصاء أو الإنكار أو القتل، مثلما ساد ذلك كنيستنا نفسها.

لسنا في ذلك استثناء، أخي كريستوف.

لم يعلق. كان لا يرغب في خوض مزيد من الحديث عما يجري من حولنا في الدير من فظائع حرب أهلية ظاهر سببها الدين. ولكنه رمى مبتعدا عني نحو حقل الزيتون حاملا قفة من نبات الدوم فارغة، في ذلك اليوم من منتصف خريف ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين.

هل كان لإبراهيم أن يفرّق بين أبناء ملته؟

فقلت أنكده على سبيل التظرف.

إني أسمعك أحيانا لا تزال تغني وتقول الشعر!

فرفع يسراه مقبوضة الأصابع، قائلا دون أن يتوقف أو يلتفت.

لأنني أشعر بالحزن يغمرني.

ليلا، رأيتني في المنام المسيح يقاد نحو الجلجثة فدقت المسامير في كفيّ وصدري ووُضع تاج البابا شوكا على رأسي فاستفقت صباحا، وقد تأخرت عن صلاة السادسة، على خبر اغتيال الراهبة الأخت أوديت في مدينة الجزائر من خريف هذا العام، ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين. وفي ليلة تالية رأيت شبعا حز رقبتني بسكين مسنن فأصبحت على بلاغ يُنذر الأجانب، بمن فيهم رجال الدين المسيحيون، بمغادرة البلد نظير سلامتهم - إني لا أتذكر من كوابيس صغري سوى رؤيتي نفسي أهوي مرة من جرف ومرة أغرق في بحر وأخرى أذوب وسط حريق.

أغادر بلدي تحت التهديد! إلى أين، قلت للأخ لوقا عند فطور الصباح أثناء تجاذبنا الحديث عن البلاغ.

فرد:

نحن في رعاية الرب مخلصين له أرواحنا.

إيماننا لا يسمح لنا بأن نغادر دير سيدة الأطلس ولو لأجل مسمى لأنه بيت الإله الذي نذرنا له أنفسنا، قلت لرئيس الكنيسة في مدينة الجزائر لما سألني لدى زيارتي له للمشورة عقب صدور البلاغ بأسبوعين إن كنا أمنين على حياتنا في تَيْبِجِيرِينْ.

وكنت أحببت صديقي إمام مسجد مدينة المديّة الشيخ عبد الرحمن يوم زارني ليقدم لي تهنئته بعيد الميلاد لعام ألف وتسعمائة وستة وتسعين.

أليس إصراري على البقاء ابتلاء!

لأنه كان خلال ذلك تخوف لي مما يتهددنا. وقال إنه أمسى يرى الدير أكثر عزلة وعرضة للمداهمة.

فقلت:

الشدّة في الله، كما تقولون.

حُفْظ حياتنا حق علينا، يا شيخ أميدي.

الأعمار بيد الإله، يا صديقي الكريم.

رعتك عنايته.

O.A.S (1)

الفصل الثاني: رحلة الإخوان السبعة إلى تَيْبِجِيرِينَ نحو الْجُلُجَّة

ليلة المخنة كانث ربيعية

من الأحزان كلها، تلك التي لا أنساها، ما بقي في قلبي نبض وفي ذاكرتي قبس، حزني على الإخوان السبعة الذين جمعني بهم الصدق وغالبا القدر، أقول القدر، في مسار رُسم لي قبل أن أولد لأخوضه، حافي الروح فوق أشواك هذه الحياة الموحجة، عاري الجسد من دثار لذائذها، فأحبتهم وأحبوني؛ أولئك الذين قاسموني وقاسمتهم ما قدره لنا الرب في مملكة أرضه هنا في تَيْبِجِيرِينَ.

فقد عرفتهم واحدا واحداً وكلاً من وسط اجتماعي وعائلي متنوع بحياة وشخصية وعواطف ومشاعر مختلفة؛ وهو شأن لا يخص رهبانا مثلنا وحدنا إذ هو يسري على أغلبيتنا نحن البشر لتمائل مصائرنا مهما اختلفت مساراتنا. فإنهم جميعاً أجازهم قدرهم إلى سيدة الأطلس برغبة واحدة في التوبة والصلاة والعمل.

لن أضمر هنا أن ما مكنتني من حيازة ما خلفوه، لضميري وذاكرة تَيْبِجِيرِينَ، لأحفظه لهم، هو شعاع نور من وجه الرب كان أضاء لي الطريق إلى نجاتي فأكون شاهداً على نهايتهم القدرية المتشابهة، هم السبعة. لا أقول النهاية المأسوية، فذلك ينزلهم إلى موت البشر العاديين، ولكن الخاتمة المرغوب فيها، إن لم تكن طبيعية، لدى كل مؤمن راغب في السير على آثار المسيح مانحاً لحمه ودمه من أجل الخلاص.

أمس، كنت وقفت على شواهد قبور رؤوسهم السبع: لوقا وبرينو وسيلستان وكريستيان وپول وميشيل وكريستوف، بلا أجساد ولكن بسبع أرواح، نائمين كأطفال في دفء تربة

هذه الأرض، التي حضنتهم إلى الأبد ليظل المطر يسقيها معينا لخلودهم والثلوج تلبسها ثوب إيمانهم كل شتاء، فتهب رياح جبل الناضور تهددهم وتأتي طيور الغابة المحيطة توقظهم كل ذكرى، من ربيع شهادتهم، فينشدون معها ومع حيوانات تبيجيرين وحشراتنا وشجرها ومائها وأعشابها إنشاد السلام محبة للإنسان ومجداً للرب خالق كل شيء؛ فإنما ترى هذه الأرض قد صار من لحمهم، هم أيضا.

فليكن الإله في عوني وأنا أعرض عليكم سيرهم السبع واحدة واحدة، بألسنتهم هم، مثلما عرفتهم وعاشتهم وقاسمتهم لحظات الفرح والاعتباط والحزن والارتياح والارتياح، مثلما خطوا ذلك في دفاتر يومياتهم الحميمة في أوقات فراغهم وتأملاتهم واسترجاعاتهم وتذكراتهم. فإن كلماتهم كانت هي إياهم، هي أنفاسهم وهي أرواحهم. أما أنا فلست سوى نفحة من نسيم تنثرها ها هنا.

فبرغم المدة الزمنية التي فاتت على موتهم، لا تزال إلى اليوم تعتورني رعشة الفقد؛ تلك التي أحسستها أول مرة من صبيحة غيابهم، بفعل الفراغ الذي خلفوه، ليس في قلبي وحده ولكن في الدير المكروب لرحيلهم وفي غرفهم، صامتة صمت انتظارها إياهم، التي إذ دخلتها واحدة واحدة خلّتها توهمتني إياهم واحدا واحداً، بينما كنت أراني إياهم واحدا واحداً؛ فاستأنست مني، كما كانت تستأنس من أنفاسهم، بعضاً من سَعَتها على فقرها وبساطتها وزهداها لا يؤثّر كل واحد منها سوى صليب وسرير وطاولة عليها شمعدان والكتاب المقدس ودفتر يوميات حميمة بلمسي إياه كنت كأني ألمس بشرة أجسادهم واحدا واحداً.

لن أكون منصفاً، وما أبعدني عن ذلك، إن لم أذكر، قبل كل شيء، أن يد القدر قيّضت لنا، أنا والأخ جون - پيار، إنسانا مسلما فدانا في ليلة المحنة تلك! فأحمد لمين لم يكن حارس الدير فحسب ولكن كان فوق ذلك صديقا وفيا. منه تعلمت، بعد ليلة الابتلاء، كذلك أعدها، أن الفدى ليس لغة يطلقها اللسان مزينة ببلاغته ولكنه شيء لا يفسر لأنه ما فوق اللغة تأتي جذوته من عرق شجرة الإيمان فتنبس في القلب فيغدو الجسد، الذي نتعلق به من أجل

الحياة، هباء. فكذلك وجد أحمد لمين نفسه في لحظة قُدرت بثوان بين أن يُخبر عنا فنهلك، أنا والأخ جون - پيار، لينجو بنفسه، أو يجحد مجازفا فتكتب لنا الحياة نحن الثلاثة.

إذاً، لم أكن الناجي الوحيد في تلك الليلة الربيعية التي كان ما تلاها سيتلون بدم الشهادة. فأنا والأخ جون - پيار كُتب لنا، بفدى أحمد لمين، أن نكون شاهدين على بدء رحلة عذاب إخوان سبعة من دير سيدة الأطلس نحو الجلجثة في جبال بوگرة. فلمن، غيره، كنت سأقول لقد جاء إخوان الجبل. إنهم هنا. وكنت أحسب أنهم لا يريدون، كما في مرات سابقة، ليلا، سوى الأخ لوقا لأخذه من أجل معالجة أحد جرحاهم أو مرضاهم.

فإني، على وقع حركة غير عادية وجلبة أصوات بعضها بعربية ذات نبرة قاسية، قدحت عود كبريت وراقبت ساعة منبهي، الذي كنت ضبطت جرسه على الرابعة صباحا لأستيقظ من أجل تلاوة الصلاة الإلهية، فوجدتها تشير إلى الواحدة ودقائق، فقممت في عباءة نومي من غير أن أشعل الضوء وفتحت باب غرفتي نصف فتحة وأطلت بشق رأسي فرأيت الحارس أحمد لمين ملتصق الصدر إلى الجدار رافعا يديه إلى أعلى وقريبا منه أحد إخوان الجبل في حديث مع من كان في داخل مكتب المداومة المفتوح بابه الذي تنبعث منه حزمة نور خافتٍ أجلت جانبا من عتمة الرواق.

ظننت لأول وهلة أن إخوان الجبل جاءوا في أمر استعجالي، كما عادتهم منذ ثلاث سنين؛ لذلك أخرجت رأسي كلية على وشك أن أرمي خطوة خارج الباب لأستفسر فأدار إلي أحمد لمين وجهه وحرك رأسه حركة فزع بأن أدخل فتراجعت مغلقا الباب في حذر مصغياً فسمعت أحدهم يرفع صوته.

أين هم الرهبان؟

وبعد هنيهة صمت.

امش قدامي!

على تلاشي وقع الخطى في الرواق حملت شمعة وعلبة كبريت وخرجت فطرقت باب غرفة الأخ جون - پيار المقابلة لغرفتي طرقتين متواليتين. وهمست له أن لا يشعل الضوء، خشية أن يتم الانتباه إلينا. وفي الداخل أوقدت الشمعة فأخبرته أنهم كانوا في الرواق وأنهم اقتادوا أحمد لمين. لم يسألني الأخ جون - پيار عنم يكونون. كان يعرف. ومثلي، كان ذهب به ظنه إلى أنهم بحاجة إلى خدمة الأخ لوقا. ثم ها أصوات غير مفروزة تناهت إلينا فتقدم الأخ جون - پيار من نافذة غرفته المظلة على الجناح المقابل.

وهمس.

أطفئ الشمعة! إنهم في الساحة.

وقفت بجانبه. كانت الساحة، في تلك الساعة من تلك الليلة الصافية سماؤها، غير معتمة. فإننا رحنا نرى أحد المسلحين في لباسه الأفغاني يدفع أحمد لمين أمامه باتجاه المرقد، حيث ينام الأخ لوقا، متقدما أربعة مسلحين آخرين يتوسطهم الأخ كريستيان؛ بينما تمركزت هنا وهناك وتحت نافذتنا أشباح أكثر من عشرة مسلحين آخرين. وخشية أن نُكتشف تراجعنا إلى عمق الغرفة فشد الواحد منا على يد الآخر وجلسنا على حافة السرير ملتزمين صمت صلاةٍ وسكون خشيةٍ.

في الغد، كان أحمد لمين سيخبرني أن عدد إخوان الجبل كان يفوق الأربعين نفرا تفرقوا في زوايا الدير وخارجه وعند بابه، وأن من كان يدفعه أمامه بحد السلاح هو قائد المجموعة. فهو الذي أجبره على أن يدلّه على مرقد الأخ لوقا حيث مراقد الإخوان الآخرين. حتى إذا تم تجميعهم في إحدى الغرف سأله إن كان ذلك هو عددهم. فحرك رأسه مؤكدا أنهم سبعة.

إنني أتخيل الآن أحمد لمين وهو ينطق العدد، بل أراني إياه، لا فاصل بين حياته وبين موتي سوى كلمة حملتها نفسه الزكية. فأني قدرة عصبية ونفسية وعاطفية كان عليها في مواجهة الموت إن لم يكن هذا التحول الذي لا ندري من أي مصدر فينا يأتي مرة في حياتنا، لأنه لا

يحدث إلا مرة واحدة ومن هنا عظمتها، فيرفعنا إلى مقام الفدى؛ ليس في مواجهة الموت فحسب ولكن في تحدي وحش الشر أمام عين الإله. فقد كذب عليهم أحمد لمين من حيث صدق لروح الإنسان فيه. كنا، ليلتها، تسعة. ماذا كان يعني له أن ينقذ حياة اثنين إن لم يكن قادرا على تخليص السبعة الآخرين من قدرهم المحتوم غير التضحية بنفسه.

يا له من دين علينا تجاه أحمد لمين!

كذلك كان الأخ جون - پيار سيعلن لي بعد حوالي شهرين من تلك الليلة، إثر نزول خبر شهادتهم علينا نزول صاعقة.

مثل الأخ جون - پيار، كنت اعتقدت، وقد استتب الهدوء في الدير وانقطعت الحركة، أن إخوان الجبل كانوا تسلموا ما طلبوه من دواء كما هي عادتهم وقد يكونون أخذوا معهم الأخ لوقا. ومثله كنت، عقب الصلاة، خرجت من الغرفة إلى الرواق فعائنا كل شيء ساكنا فيه ونور مكتب المداومة، حيث كان الأخ كريستيان، لا يزال يضيء جانبا منه. وها وقع خطوات يصل من مدخله فتوقع لي الأخ جون - پيار.

قد يكون الأخ كريستيان.

بل هو أحمد لمين، قلت وهو يتوسط في اللحظة هالة النور الباهتة.

على بعد خطوتين منا، توقف فتنهد عميقا. كان يلبس جلابته الصوفية وجزمة مطاطية. ثم نطق بصوت مبحوح: سلامتكم. قلت: هل أنت بخير؟ فهز رأسه فحسب. وسأله الأخ جون - پيار: أين الإخوان؟ فتفرسنا، كما لو كان يختبرنا أكنا مستعدين لتلقي صدمة الخبر. ثم كسر نظره قائلا بنبرة حسرة إنه فتح لهم الباب الخارجي فرأى سيارتي شحن من نوع پوجو ٤٠٤ مغطاتين، أركب فيهما الإخوان كريستيان ولوقا وپول وكريستوف وميشيل وسيلستان وبرينو، أقلعتا متبوعتين بسيارتين أخريين من نوع گولف ومرسيدس نحو الطريق الوطني رقم واحد، بينما اتجه بقية أفراد المجموعة نحو الجبل راجلين.

إذ دخلنا مكتب المداومة وجدناه مبعثرا فرفعت سماعة الهاتف، لأتصل بأسقفية الجزائر العاصمة، ووضعتها لصق أذني فلم تصلني حرارة فحركت رأسي نحو الأخ جون - پيار، فنطق أحمد لمين أنهم خربوا علبة مقبس الهاتف. ثم تولى عنا خارجا.

وقد عدنا إلى غرفتي، فأوقدت شمعة، تحسّر لي الأخ جون - پيار.

هل سيحتفلون معنا بعيد الفصح ويصلّون!

ولم التشاؤم؟

صمتنا. كابرننا معا خوفنا. ولكي نبدد قليلا من قبضة الروع علينا رحنا نثير لبعضنا أسباب ما حدث.

قال الأخ جون - پيار:

الأمر لن يعدو مجرد اختطاف من جماعة أخرى من إخوان الجبل غير تلك التي أعطانا أميرها الأمان تريد أن تساوم بإخواننا طلب إطلاق إخوان لهم في السجون هنا أو في فرنسا.

ولم لا تكون هذه الجماعة تابعة للأمير الذي أنذر جميع الأجانب، ولا سيما الفرنسيين بمن فيهم رجال الدين، أن يغادروا البلد في الأجل الذي حدده لذلك؟

يبدو هذا واردا.

فذكرت له أن النقيب كمال كان من قبل جاء الدير وعرض علينا حماية الجيش. وقال: نحن مستعدون لنصب مركز حراسة بالقرب من الدير.

فكنت رددت.

إننا هنا في حماية الرب.

وقال الأخ كريستوف الذي كان حاضرا معنا في ساحة الدير.

وسنواصل صلاتنا الصامتة وعملنا اليدوي وعلاقتنا الطيبة مع جيراننا.

وأضاف، منقلا نظره بيني وبين النقيب.

أعتبر ما قاله لنا رئيس الكنيسة في الجزائر العاصمة وصية كون صلواتنا من أجل أن يعم الاستقرار هو أملنا الراسخ ما دمنا نشعر بهذا الرابط الوثيق الذي يربطنا بهذا الشعب. ثم إننا لم نحس من قبل كما نحس اليوم جيراننا قريبين منا. وهم خائفون علينا أكثر من خوفنا نحن على أنفسنا. نحن ممتنون جدا لك حضرة النقيب.

فأبدى لنا النقيب كمال بحركة من رأسه أنه يتفهم. ثم ودعنا.

قلقنا على إخواننا الذي يسيطر علينا هو الذي يشنت لدينا كل تركيز في ما نعمله. لذا لم نعد كما كنا نفعل من قبل جاعلين من هدوئنا قوة في مواجهة أي طارئ مهما تكن وطأته، قلت للأخ جون - پيار إذ تشكى إلي من أنه تائه.

فقال:

لكن الأمر قد اختلف اليوم.

وتساءل لي لم لا نتوجه إلى مقر الدرك لإطلاعهم. فنبهته إلى أن حظر التجول لا يرفع إلا في السادسة صباحا. فراقب ساعته على نور الشمعة التي كنت وضعتها في مشكاة.

وقال:

إنها الخامسة.

فقلت:

هو وقت رفع أذان الصبح من المسجد.

أصغينا. كان ذلك سيؤنسنا بأن الحياة في خارج الدير عند جيراننا المسلمين مستمرة، كما هي العادة. غير أنه فات أكثر من ربع ساعة على التوقيت ولم نسمع شيئا. كنت شخصا أحصي المواقيت الشرعية بناء على التقويم الهجري حسب فصول السنة التي يتغير معها توقيت رفع أذان الصلوات الخمس.

الوضع في الخارج لا يطمئن، قلت للأخ جون - پيار.

فطلب مني، وهو لا يسيطر على حركة يديه، أن نؤدي صلاة المديح. وقال إنه ذاهب لقرع الناقوس. فأمسكت بذراعه محذرا إياه من أن إخوان الجبل سيسمعون وعندها سيعودون. وسيقتلون أحمد لمين، لأنه كذب عليهم. وسيبحثون عنا إلى أن يعثروا علينا.

وأضفت.

عطل جيراننا المسلمون رفع أذانهم فكيف ندق نحن ناقوس ديرنا.

فاعترف.

أنا مرتبك. سامحني.

لم يكن بقي لنا، وقد بان الصبح، سوى الاتصال بمقر الدرك فقدمنا تصريحا بما حدث واتصلنا بأسقف الجزائر فأطلعناه على الحادث. ثم وقد عدنا إلى الدير فدخلنا المطبخ وجدنا في الطنجرة ما كان الأخ لوقا حضره للغداء؛ فإنه كان لا ينام إلا بعد آخر صلاة يدخل إثرها المطبخ ليعد مواد طعام الغد. كانت رؤية ذلك، وسط الصمت، محزنة ومؤلمة ومبكية. كان الأخ جون - پيار أكثر مني تأثرا. فقد شهق شهقات متتالية خرج أثناءها متعثر

الخطى وتركني أمسح دمعي. كانت الفاصوليا الحمراء المعدة هي آخر غداء كنا سنتناوله مجتمعين، كما هي عادتنا، في الواحدة ظهرا.

بعد ساعة، أخبرنا أحمد لمين أن جنودا من الجيش عند الباب وأن ضابطهم يريد مقابلتنا. تبادلنا تحيات الاحترام. كان النقيب كمال، برغم غلالة القلق التي ظللت تقاسيم وجهه الجميل، قد بدا على ثقة صلبة إذ قال: نحن ندرك ما قد يتعرض له إخوانكم. ولكننا سنسعى من جانبنا على أن يعودوا ناجين. إننا لا نقبل بأن يمسه رجال دين مسالمين أي سوء. جئت أبلغكم أنه لا يمكنكم المبيت في الدير حفاظا على سلامتكم. أرجو أن تحملوا ما خف من متاع وأن تصحبوني حالا إلى نزل في المدينة.

لم أشك لحظة في صدق كلمات ضابط عسكري برتبة نقيب شاب متوثب يؤدي عمله في منطقة مشتعلة كمنطقة المدينة وما جاورها. فقد قبلت، مثل الأخ جون - پيار، أمره بلا نقاش أو استفسار، ليس انصياعا ولكن احتراما. كانت نية الضابط كمال، ومن ورائه تراتبيته، أن يجنبنا الوقوع في المكروه. ثم، ماذا كان لراهبين مثلنا أن يفعلاه أمام دوامة العنف التي بلغت الدير أخيرا.

في غرفتنا بالفندق، التي أقيم عليها حارس، استرجعنا لحظات رعبنا وصلينا من أجل نجاة إخواننا السبعة. فذلك ما كنا نملكه لهم.

أخيرا، سيكون لي عذر إن أنا أفسحت لأحمد لمين أن يقول هنا بلسانه ما كان من شأن ليلة المحنة تلك. ولكن قبل ذلك أحب أن أحدثكم قليلا عن شيء من سيرته وعن بعض ما كان يجري بيني وبينه.

أحمد لمين وجده والراهب كريستيان

لأحمد لمين، هو أيضا، قصته الشخصية في تبيجيرين، مثلنا ومعنا، معي أنا شخصيا في الدير. فإني كنت أقدر أن أروي عنه ما عرفته منه في سلوكه ومن فطرته وكلامه ومن تاريخ أسرته؛ إذ أننا في سيده الأطلس نعلم نسب كل عائلة في الجوار وموقعها ومكانتها الاجتماعية ومنزلتها بين بقية العائلات الأخرى ومواقفها من الاحتلال ومن حرب التحرير ولاحقا من الحرب الأهلية، التي قسمت عائلات من أبناء العمومة والأخوال إلى إخوة أعداء حد الاقتتال والثأر والانتقام. غير أنني أثرت أن يكون أحمد لمين هو من ينقل شيئا من ذلك عن نفسه، وكأنه أمامي الآن، مثلما كان يفعل على مر سنين يحدثني بين يوم وآخر أو بين فترة وأخرى على تباعد وفي أوقات الفراغ بيننا غالبا وبعد نهاية حصة الدعم التي كنت أخصصها له، هنا، في مكتبة الدير إلى أن نال شهادتي التعليم الابتدائي والمتوسط بين قائمة المترشحين الأحرار، قبل أن ينقطع للزواج.

إني أشهد على أن أحمد لمين وليد تبيجيرين أبا عن جد. لحمه وعظمه ودمه من ترابها. عاش إلى اليوم بين حقولها ومزارعها وبين بيته وبيتهم العائلي وبين الدير.

قال لي غداة الذكرى العاشرة لرحيل الإخوان السبعة، وقد جاءني، هنا، بأعداد من الصحف التي تناولت الحدث، إنه يكاد لا يصدق أنه نجا في ليلة السادس والعشرين إلى السابع والعشرين من شهر مارس، ألف وتسعمائة وستة وتسعين. وأنه لا يزال يحيا. فقلت: وبعناية الإله أنجيت غيرك. فقال: العفو. وسألني إن كنت أحتاج شيئا آخر. فقلت: اعتن بنفسك.

فقد يكون كل شيء بدأ في حياة أحمد لمين، فغير مسارها عن أن يكون شخصا آخر في مكان آخر، عام أن انقطع عن الدراسة في السنة الخامسة الابتدائية، قبل أن يستأنفها عن بعد. كانت المدرسة نائية. وكان ذلك يتعبه. فإنه غالبا ما لا يذهب إليها إلا جائعا وفي حال من نعاس لا يزال يثقل جفنه، كما كان يحدثني أحيانا في حصص الدعم. وكانت أيام التساقطات الثلجية والمطرية وعواصفهما، التي تشهدها هذه المنطقة العالية عند سفح جبل الناصور، أنسب عذر له للتغيب.

من ثم، كان يخلد إلى بيتهم. ولكيلا يُغضب أبويه اللذين كانا لا يحرصان كثيرا على الأمر، يروح يقدم العلف لعنزاتهم ونعاجهم. وفي خلال ذلك خرج غير مرة فنصب فخاخا للأرانب والحجل فصادف أن وقعت فيها بعض بنات آوى فحررها، مثل هذا الثعلب الذي جرى أمتارا ثم توقف والتفت إليه لحظة اختفى بعدها خلف دغل. ذكر لي أحمد لمين أنه فعل ذلك لأن خم بيتهم كان محصنا بشباك معدني يؤمن ليلا سلامة الدجاجات وكتاكيتهما والديك المزهو بريشه المتغطرس بصياحه، فجرا أو صباحا وأحيانا ظهرا، المتبختر بعرفه الأحمر مثل تاج ملكي على رأسه مختالا بين حريم إنائه المنقنقات.

لم يكن أحمد لمين ليفعل ذلك مع هذا الذئب الذي واجهه عند الغابة فصرخ فيه، هاشا بعصاه نحوه، لا ليرد طمعه فيه أو في شياؤه بجانبه بل ليظهر له أنه أكثر منه حيوانية. فكشر له عن أنيابه ثم دار مختفيا، مخلفا في نفسه رعشة اقشعر لها جلده. وليلا، أفاق من كابوس رأى فيه الذئب هجم عليه فعضه على ساقه فأسقطه أرضا ونشب أنيابه في رقبتة ثم مزق بطنه فنهش قلبه وكبده ورئتيه وطحاله.

ولأن والده لم يكن يسمح له باستعماله بندقية الصيد - التي كانت فخر ما سلبه منهم إخوان الجبل ليلة مداهمتهم بيتهم العائلي - قطع أحمد لمين على نفسه عهدا بأن ينتقم من ذاك الذئب الغدار الموسوم بِشِيَّة بيضاء فوق أنفه بعد أن قتل ثلاث نعاج لهم من أجل القتل فحسب من دون أن يبقر إحداها وليته فعل فأكل أحشاءها ليخبر أنه كان جائعا. فإنه لم يخلف سوى أثر أنيابه على نحورها، تاركا إياها نافقة على تباعد بينها في الزريبة مما دل على أنه طاردها.

فإن أحمد لمين كان، وقد بلغ سن الثامنة عشرة، نصب لذاك الذئب فخاً عبر مسلك الشياه إلى الزريبة لم يكن له سواه للوصول إلى الخروف الذي ربطه له في نهاية المطاف حيث وضع على بعد أمتار منه مندافا حديديا مسننا أخفاه تحت العشب، بعد تثبيت فكيه مفتوحين، كما يخفى لغم مضاد للإنسان، بمجرد ضغط على اللوحة ينقلان لارتخاء

النابضين. ولبد ينتظر فإذا الغدار، كما يصفه، خرج من خلف الدغل، بينما كان هو خلف دغل آخر في الجهة المقابلة.

تطلّع الحيوان يمينا وشمالا وكشر ثم ترحك عبر المسلك متختلا مسويا رأسه طوليا مع مستوى ظهره. وعند نصف المسافة الفاصلة رفع رأسه وركض، وقد أصاب الخروف ذعرًا فضرب جرّاءه في كل اتجاه ليفك قائمته الخلفية من الرباط من غير جدوى، في حين كان قلب الكامن يخبط في صدره خبطا. وماذا لو انفك الرباط وماذا لو لم يقع الذئب في المنذاف. كان لا يحمل البندقية. ثم ها صكصكة الحديد على الحديد وصيحة عواء حادة لا هي شبيهة بنباح كلب يُضرب بقسوة ولا هي أيضا من عواء الذئاب المتضورة جوعا أو المرسلّة من غور الليل لتحديد مجال حيوي أو دعوة إلى اقتران. كانت صرخة ألم قوية آتية من جحيم التوحش.

وهو يقف عليه، وفي يده فأس حطب من نوع الشاقور ذات شفرة عريضة مشحونة، خاطبه قائلا أنا أذكى منك أيها الغدار. ولكن كيف جئت من دون قطيعك أم أن فحلا غيرك هزمك وطردها وها أنت الآن تهيم ضالا أم أنت ذئب وحيد؟

لم ينظر إليه الحيوان ولا كشر أو أصدر صوتا. كانت قائمته الأمامية بين فكي المنذاف تدمي بينما هو يعض عليها كما ليقطعها فيتخلص.

على غضب، متخيلا نعاجهم الثلاث في الزريبة نافقة، حرك الفأس في يده ورفعها أعلى ثم هوى بها بما يملك من قوة على رقبة الحيوان فانفصلت رأسه منقذفة على بعد خطوة منه.

قال لي أحمد لمين إنه كان سيقم على لحم الذئب الغدار عشاء فاخرا، بعد سلخه وشيه على جمر الحطب، كما يفعلون بالخرفان في الولايم، لولا أنه سمع والده يوما حدثهم عن أن أكل لحم الذئب حرام لأنه خلال حرب التحرير كثيرا ما افترس جثث القتلى من الجانبين في المعارك التي كانت تجري وقائعها في مناطق كثيرة من المدينة وفي جبال الناضور وتمزّجيدّة وبوگرّة نتيجة قصف الطيران أيضا.

فسألته إن كان ما قتله ذئباً أو ذئبة. فقال بوثوق: ذئب!

فأحمد لمين كان قد صار يفرق بين الذئب والذئبة منذ أن كنت أدخلته إلى مكتبة الدير في يوم من أيام فصل الشتاء وفتحت أمامه موسوعة الحيوانات المتوحشة. كان جالسا بجنبي في جلابته الصوفية؛ بينما كنت في لباسي الكنسي الغليظ وعلى رأسي طاقيتي. وقلت له أن انظر هذه المخلوقات كم هي فاتنة برغم وحشيتها!

وبينما هو يتفحص ما في الموسوعة بين صفحة وأخرى مهتما أكثر منه منبها لمعرفة الحياة بما يعيش من حوله في جبال الناصور وتمزجيدة من تنوع حيواني كالثعالب والضباع والذئاب وبنات آوى وحتى القردة في جبال الشقة، كنت أفصل له الحديث عن طبيعة تلك الحيوانات وبيئتها والفروق بينها وعن السلسلة الغذائية التي تتحكم في كل صنف منها تجاه غيره؛ أخطرها وأبشعها في أعلى السلسلة الضبع الذي يفترس الذئب، كما شرحت له. ونبهته إلى أن أسد الأطلس الجزائري قد انقرض مع نهاية العهد العثماني في البلد وإلا كان هو في أعلى السلسلة. ثم أشرت إلى صورة ذئبين، كذلك كان حسيبهما، محركا إبهامي بينهما.

والآن انظر إلى الحيوانين. إنهما من عمر واحد. عشر سنين. ماذا تلاحظ؟

هذا على اليمين يبدو أصغر قليلا.

زُد.

ويبدو أقصر طولاً من الأنف إلى الذيل.

حسن جدا. واصل.

بالنظر إلى حجم كل منهما يبدو هذا أيضا أقل وزنا.

ماذا تستنتج؟

غالبا ما تكون هذه مواصفات الإناث من النساء. إنني أتذكر صور الذئاب التي أراها أحيانا ترقبني عن بعد خلال رعيي ماشيتنا عند سفح الجبل ولا أفرق بين أنثاها وذكرها.

فركزت طرف إبهامي على الحيوان الذي كان يبدو أصغر من الآخر، قائلا.

إنها السنداوة أنثى الذئب. وهي خطيرة وأشد توحشا وضراوة وافتراسا من ذكرها. وهي ذكية جدا. وصاحبة كرامة أيضا لأنها لا تأكل الجيفة ولو ماتت جوعا. وكذا الشأن بالنسبة إلى ذكرها.

فنظر إلي، مبتسما. فسألته.

هل عندك صديقة؟

أنا أقوى منها وأطول وأثقل وزنا.

هل أنت تحبها؟

سأتزوجها يوما، لأنها تحبني.

فضحكت، ناقرا بأطراف أصابع يمناي على كتفه.

ثم قلت:

لا بد أننا سنأكل الكسكس ونشرب الشاي ونسمع أغنيات.

فإن أحمد لمين كان فعلا دعاني إلى الغداء غداة دخلته. لكن مانع سفر عاجل لي إلى العاصمة حال دون ذلك.

إنني أذكر، وقد تم توظيف أحمد لمين حارسا في الدير، أنني فاجأته مرة في المكتبة، إذ جاء يستعير كتاب زمن النمر، بما لم ينتظره مني أبدا.

أحمد لمين. رأيك لا تقيم صلاتك عندما تكون مشغولا في داخل الدير أو خارجه في الجنان.

صحيح.

أعرف ما يمنعك أحيانا.

كان شيء من ذلك يحدث لي فعلا.

وأعرف أنه مرخص لكم أن تقضوا ما عليكم من دين الصلاة في أوقات لاحقة.

بالرغم من أن للصلاة في وقتها حسنة.

تكلمت مع الأخ لوقا لتخصيص قاعة العلاج القديمة لتؤدي فيها صلواتك.

كتبها الله لكم في حسناتكم.

أمين.

لاحقا، كان أحمد لمين حصل على شقة صغيرة ملحقة ببنية الدير قريبة من بابه ليقيم فيها مع زوجته.

وها هو يقول عن ليلة المحنة، ما خطه بيده، تلبية لطلب مني، فسلمني إياه على أوراق.

قُدّر لي أن أرى، خلال تلك الليلة الهادئة الدافئة، من ليالي دخول الربيع أسبوعه الأول، حلما انبعثت فيه في سوق مدينة المدينة الأسبوعي وقد نشرت أمامي زجاجات العسل ومربى المشمش من سعة الرطل وعلب الجبن البلدي الدائرية التي كنت البارحة جلبتها من الدير، فسألت الإمام الشيخ عبد الرحمن الواقف علي، ومن حولنا أصوات الباعة الصادرة أيضا من مكبرات صوت محمولة أو مثبتة بأعمدة خيام الأجنحة أو على مركبات شحن صغيرة، إن

كان يريد شيئاً من البضاعة فاستخبرني عن الشيخ أميدي إن كنت رأيته أمس لما كنت في الدير. فطمأنته. وكنت سأسأله عن حاله لأنه بدا لي، على غير عادته من ملاحظة الوجه وانفراج أساريره، متجهما بل خائفاً، إذ هزنتي زوجتي بكتفي هزات متتالية.

أحمد لمين، أحمد لمين! أسمع طرقاً على الباب الكبير.

نهضت فلبست جلابتي الصوفية وجزمتي المطاطية وخرجت. ومن وراء باب مدخل الدير سألت: من؟ فرد علي صوت بأمر صارم أن افتح. صمت. جاءني الصوت نفسه مهدداً هذه المرة.

افتح وإلا نسفنا الباب!

سارعت إلى مكتب المداومة في الطابق السفلي الذي كان فيه الأب كريستيان فأخبرته أن إخوان الجبل أمام باب الدير. في هذا الوقت كانوا تسلقوا حائط السور وقفزوا إلى الداخل. وفي الرواق، بينما كنت أخرج من المكتب، أشهر علي من كان يتقدم المسلحين الأربعة مسدسه الرشاش من نوع كلاشنيكوف ودفعني صدرا إلى الحائط.

ارفع يديك!

عرفته. هو أبو الحارث. من منطقة تبيجيرين. وكان هو يعرفني لأننا كنا، ونحن صغار، في المدرسة ذاتها. دغرني بشدة في ظهري بماسورة سلاحه.

سأذبك إن حرنت. أين ينام الرهبان؟

عندها سمعت صوت الأب كريستيان من المكتب، وقد دخله عليه المسلحون الأربعة الآخرون.

لا تقاوم يا أحمد لمين! سأخبرهم. إنهم يعرفوننا. لن يؤذونا.

نادى أبو الحارث أحد الأربعة وأمره أن يحرسني ثم التحق بالثلاثة، في حين خطفت نظرة من زاوية عيني إلى المسلح بجانبي منشغلا عني بما يجري داخل المكتب الذي صار يصلني منه صوت الأب كريستيان وهو ينطق عبارات تهدئة.

لطفا. بلا قلق. سيكون كل شيء كما تبغون.

وأنا أعيد نظري إلى وضعي السابق لفتته، إلى يميني، رأس الشيخ أميدي يطل من شق باب غرفته في آخر الرواق فأشرت إليه بحركة من رأسي أن يرجع. كنت أعرف أن الراهب جون - پيار يكون نائما في الغرفة المقابلة.

ثم كان أبو الحارث خرج وأمرني بالسير أمامه، بينما كان الأب كريستيان يتوسط الأربعة الآخرين من خلفنا. إذ وقفت أمام باب المرقد المغلق لحظة دغرني مرة أخرى في ظهري بطرف ماسورة سلاحه.

نادهم أن يفتحوا!

أذعنت. لم يكن لي خيار. كنت أشعر أن يدا ستمتد من خلفي بشفرة سكين على حلقي لتحزّه.

افتحوا! أنا أحمد لمين ومعني الأب كريستيان.

لصرصة المفتاح في القفل، جرنني أبو الحارث إلى الخلف. ودفع الأب كريستيان أمامه فتوسط الغرفة ومن حوله الرهبان، الذين صاروا الآن سبعة، في عباءات نومهم مرتعبين، وقد حرك هذا أو ذاك منهم يده إلى صدره فأدركت أنهم قاموا بالتصليب في قلوبهم ودعوا ربهم.

سألهم أبو الحارث بصوت حاد.

من منكم الطبيب؟

تقدم الأب لوقا خطوتين بالكاد ثبتهما على البلاط، مئحني الظهر قليلا. ونطق مرتعش الشفتين.

أنا هو.

نريدك أن تخرج معنا أنت ومن معك فوراً.

لا أستطيع أن أتحرك إلا بترخيص من رئيس الدير.

أين هو؟

على سفر.

لا يمكن أن ننتظر.

تفحصه الأب لوقا بنظرة مشفقة وكأنه كان سيعاتبه على تجاوزه حدود اللياقة مع رجال دين، مثل الرهبان أمامه. ثم خاطبه.

ملامحك ليست غريبة علي. لا بد أنك من جيراننا.

لم يخطئ الأب لوقا حتى ولو كان أبو الحارث نفي بحركة من رأسه. فهو يعرف جميع الأطفال الذين كانوا يرتادون مدرسة القرية. وكان أبو الحارث واحدا منهم، مثلي. وبهدوئه المعهود، الذي يعطيه صراحة وشجاعة لا تلينان، قال له إن باب الدير لم يغلق في وجه أحد يوماً. وذكره بأنه سبق له أن عالج أكثر من واحد قبل أن يتلقى من مصالح الأمن إنذاراً بطرده إن هو عاود استقبال أحد في الدير من المطلوبين. فقاطعه أبو الحارث، الذي وجدته أطلق لحية زعراء وصار يحمل نظارات رؤية.

ليس لدينا مزيد من الوقت للحديث.

قال الأب كريستيان:

الأخ لوقا، إضافة إلى كبر سنه فهو مريض. ولذا لا يمكنه التنقل.

كفى، قلت!

أنت ترى أنه شيخ في الثانية والثمانين وهو لم يتردد يوما في تقديم ما طلبه إخوان الجبل مثلكم.

لم يكثر أبو الحارث للأب كريستيان، ملتفتا إلى مرافقيه، كأنما في استشارة. فتقدموا عني خطوة، مشددين على زنادات أسلحتهم. فهمس لهم شيئا ثم تولى نحو الرهبان. دقيقة لتلبسوا ثيابكم. ستخرجون معنا جميعا.

خلال الشوشرة التي حدثت بينه وبين الرهبان فجلبت إليها انتباه المسلحين الآخرين انسحبت على طرفي قدمي إلى الخلف لكن أحدهم كان ردني بماسورة سلاحه في ظهري.

وأنا أفتح لهم الباب الخارجي أمكنني رؤية سيارتي شحن من نوع يوجو ٤٠٤ مغطاة وسيارتين أخريين من نوع مرسيدس وگولف متوقفة كلها في الخارج. لم أكن أتوقع أنهم سيتركونني متمسرا عند باب الدير لما أركبوا الرهبان السبعة تحت الحراسة وأقلعوا بهم في اتجاه الطريق الوطني، بينما انسحبت بقية أفراد المجموعة نحو جبال بوگرة مشيا.

كان أحمد لمين سبيوح لي، بعد أن كان سلمني ما خطه على أوراق احتفظت بها إلى هذه اللحظة، أنه حتى تلك الليلة، التي لم يعرف في حياته رعبا من الموت كما عرفه خلالها، لم يكن يعلم أن الراهب كريستيان كان ضابطا عسكريا خلال حرب التحرير. وكان على اتصال بجده الذي كان يومئذ حارس غابة. ذلك يعني أنه كان مخبره. وعقابا له، كلفت جبهة التحرير أحد الفدائيين بتصفيته فقتله بشاقور غرسه في مؤخرة رأسه. فإن والده هو الذي سبق أن كان كشف له ذلك يوما. وحدثه عن أن استعمال الأسلحة البيضاء بأنواعها في

إعدام المرتدين إلى العدو والمتعاونين معه لم يكن جزاء فحسب بل ردعا أيضا وليس اقتصادا للذخيرة الحية على ندرتها عند جيش التحرير حينها وعند إخوان الجبل اليوم.

غير أن والد أحمد لمين، وهو يحدثه، لم يصرح له أنه التحق بجيش التحرير قبل الاستقلال بسنة ليغسل لطفة العار الذي ألحقه الجد بسمعة العائلة.

قال لي:

لست مرتاحا لفعلة جدي ولا نادما عليها في الوقت ذاته. أما أن أشعر بالذنب فهو أبعد ما في تصوري. ولم يساورني ذلك؟ فقلبي خالٍ من حمل أي حقد. لكنني أحسب أن مقتل جدي خلف في نفس والدي جرحا عميقا وفي ذاكرته لطفة شماتة. أحب أن أضيف أن والدي ظل يرى أن الأب كريستيان لا يكن لنا عداوة. كان يقول لي عنه إننا لا نراه هو ومن معه في الدير إلا ضيوفا وجب إكرامهم. وأوصاني بأن أحرص على هذا. وقال لي أخيرا لن يهتمك منه أنه كان الضابط العائد بعد الاستقلال إلى تبيجيرين ليس بصفته عسكريا أو في مهمة دبلوماسية أو في ضمن سلك المتعاونين ولكن بصفته راهبا.

قلت:

إنها أقدارنا يا أحمد لمين تضعنا أحيانا في طريق الألم.

فقال:

في الأوقات التي كانت تصادف بيني وبين الأب كريستيان داخل أروقة الدير، لهذا السبب أو ذاك من أسباب تأدية عمل أكون مطلوبا فيه، كما تعلم، أو حين يدخل ويخرج من الباب الكبير أو حين تجمعنا التوزيعة في الجنان أو في الحقل أيام الجني، غالبا ما شدني إليه هذا الهاجس الذي يريني إياه كل مرة في هيئة الشخص الذي سلخ عنه جلد العسكري، المستعد لقتل غيره من جنسه، وأنضج جلد الإنسان في ذاته ليتوب إلى ربه.

فسكت، مخفيا في نفسي، ولم أدر لماذا، أن أعبّر لأحمد لمين عن إعجابي بصواب ما قاله بلغة جميلة.

فكشفت لي أن الأخ كريستيان قال له مرة وكأنه أدرك فضوله المفرط من غير أن يكون سأله كيف وجد طريقه إلى الدير ليتعبّد وهو يحمل، بلا ريب، في ذاكرته صوراً لقتلاه خلال الحرب.

الإله لا ينظر إليك ما لم تتخلص من روح الوحش فيك.

لأن الله ينظر إلى قلوبنا.

أنت، يا أحمد لمين، إنسان صالح. تعرف؟ أنا أغبطك على صفاء سريرتك.

انتظرت من أحمد لمين أشياء أخرى كان يمكنه أن يبوح لي بها إلا أن يواجهني وكأنني لم أعرفه من قبل على تحفظ لا يهتز.

كنت لا أشك في أن الأب كريستيان قتل. كم قتل. لماذا قتل. هو وحده من يعلم ذلك. ولم أرتب في أنه يشعر بذنب تجاه من يكون قتلهم أو حصر تعذيبهم من الأسرى، خلال الحرب. وإلا لم يرجع إلى الله.

هزئت رأسي فحسب وعلى لساني عبارة يا إلهي.

فواصل:

شيخ أميدي. أخيراً. لن أخفي عنك أنني تجرأت فسألت الأب كريستيان يوماً لماذا اختار أن يصير راهباً في نهاية حياته. فأجابني بما انفتح قلبي له، قائلاً.

لا خلاص في هذه الدنيا من خطايانا سوى الفرار من جلودنا نحو الإله.

ذات يوم، بينما كانت الحرب الأهلية بلغت ذروة قسوتها، عبر لي أحمد لمين لأول مرة عن خوفه من أن يقتل بال سلاح الأبيض، أقل شأنًا من ذبح شاة. وقال إنه يتمنى لو كُتب عليه الموت الأليم أن يفر بروحه تاركًا جسده لمن يذبحه حتى لا يحس برودة الشفرة ولا ألم الحز ذهابًا وإيابًا وانقطاع وصول الهواء إلى رئتيه فيخبط مثل دجاجة.

كان ذلك ذات صباح شاهد خلاله، لدى نزوله في الطريق الوطني من حافلة نقل، ثلاث جثث لرجلين وامرأة، في الممر المترب الذي كان يسلكه إلى الدير حين يكون راجعا من البيت العائلي، مرمية على الظهر ليظهر الذبح في الرقاب فاغرا صارخا.

فإنه كان أجنبي إذ وصل فسألته ما به، لأن آثار الفزع والقيء كانت ظاهرة على وجهه.

فقال:

مجرد صداع وغثيان بسبب تسمم غذائي.

أنت لا تقول الحقيقة، يا أحمد لمين. ما بك؟

ما رأيته في طريقي شيء فظيع.

علمت أن الجثث هي لشرطيين وأستاذة. سمعت ذلك من الإذاعة التي قالت إن الضحايا تم إنزالهم من حافلة نقل في حاجز مزيف هذا الصباح.

ولماذا رموا الجثث هناك؟

الآن اذهب إلى الحمام واغتسل. ستجد إبريق القهوة في المطبخ على نار الكانون.

الأخ كريستيان. بحثاً عن الحب الأكبر

بينما كنا يوما في البستان نقلع بطاطا، سألت الأخ كريستيان عن رأيه في أحمد لمين إن كان يوافق على إبقائه حارسا في الدير، بعد قضائه المدة التجريبية، فأجابني، وهو ينزع الحبات من جذورها ليضعها في السلة التي أوشكت على الامتلاء مثل سلتي، بأن أحمد لمين فوق ما يتمتع به من أمانة وصدق وإخلاص، له عليه دين تجاه أحد أفراد عائلته.

ثم نظر إلي بعين ود لا تكذب.

وقال:

أخي أميدي. أنت تعرف تاريخ هذا البلد لأنك جزء منه. وتعرف ما وقع في حرب الجزائر من مأس وما تسببت فيه من ارتدادات من هذا الطرف أو ذاك لصالح الطرف الآخر ومن التعاون معه.

لم يفت الأخ كريستيان أنني التقطت تلميحه إلى الخيانات المتبادلة التي لا تخلو منها أي حرب؛ فهو لم يكن يخفى عليه أنني أعلم ما حدث بينه وبين جد أحمد لمين.

قلت.

وأنا أعرف قدرك وقدري كقدرنا جميعا الذي ساقنا إلى هنا.

مهما يكن. فذلك تذكاري يبدو لي اليوم وكأنه حدث أمس. وكأن الأخ كريستيان حل حلولا في ذاتي لأكونه. وكأنني أنا الذي، وليس هو، من خط هذا.

مصيرنا مصير الطيور المهاجرة ولكن بلا عودة. فكذلك هي حياتي التي لم تكن سوى هجرة قطع مسافتها على مراحل لأصل إلى دير سيدة الأطلس، هنا في تينجيري، قادما من منطقة كولمار، هنالك في فرنسا، التي رأت عيني فيها نور هذا العالم الذي كان سيفرق بعد سنتين من ذلك في عتمة حرب كونية ثانية تسببت فيها حماقة الساسة ونزعاتهم التوسعية

وعبثيتهم فجلبت على البشرية الويل والنزيف والخراب والآلام ست سنين شوهدت خلالها وجه الإنسان وأدمت جسده وجرحت ذاكرته جروحا غائرة.

كيف نجت منها عائلتي؟ لا أعلم. لأنني لم أسأل. ولكنني أعرف أنني كنت الثاني في التسلسل لثمانية إخوة وأخوات من أب عسكري دائم التنقل ومن أم كانت، حتى قبل أن أدخل المدرسة وقبل أن أعرف الأديرة، هي معلمتي وكنيستى الأولى. فمنها، وليس من غيرها، أنا واثق بذلك، سكن قلبي الحلم بأن أصبح يوما راهبا.

لكأن كل شيء كان مخطوطا لي، محسوما ومحسوبا لمسار حياتي بلا انحراف عما رسمته لي يد قدرتي. فمع العائلة، وبلا إرادة مني وأنا في الخامسة من عمري وحتى قبل أن أدخل المدرسة، حللت بهذا البلد فأقمت فيه ثلاث سنين، في ميزون كاري، حي الحزاش حاليا، حيث قضيت سنتي الابتدائيتين في مدرستها قبل مغادرته؛ فأبي أثناءها كان عين في جيش الحلفاء لتأمين ميناء الجزائر، مثل غيره من موانئ وهران وبجاية وعنابة، من هجمات البواخر والغواصات الألمانية.

بعد سنين، كنت سأرجع إلى هذا البلد، الذي كان يومئذ مقاطعة من فرنسا الأم، فأصطدم فيه بإنسان آخر مختلف الهوية والمزاج والوجدان والعقيدة عما هو من ثقافتني ولغتي وديني وعوائدي، محدثا في نفسي صدمة، مخلفا في ذهني دهشة، مربكا تصوري الموروث عنه بصفته كائنا لا يملك شيئا مما يحطه، كبشر، لا في فضاء الحضارة الإنسانية ولا في زمنها؛ فتحول الأمر لدي إلى قلق نفسي ظل يؤرقني عن إشاعة الأرض الفارغة إلا من متوحشين يمكن تطويعهم أو إبادتهم لفتح الطريق للرواد من أجل إعمارها كما حدث في أمريكا الشمالية وأستراليا.

ففي عمر الطفل الذي كنته، بينما أبي منشغل عني بالحرب، لم يكن يتيسر لي أن أدرك ذلك فغاب عني أن في هذا البلد سكانا آخرين أصليين مختلفة أمهاتهم عن أمي وأباؤهم عن أبي، وديانتهم عن ديانتني ومعابدهم عن معابدي، وشعائرتهم عن شعائري ولغتهم عن لغتي، إلى أن كان من قدرتي أن أعود إلى هذه الأرض مجنّدا في الخدمة العسكرية لتتجذر في

وعبي حقيقة أن بها سكانا أصليين لهم تاريخ لم ينسلخوا عنه برغم المدة الطويلة جدا التي بقوا أثناءها تحت سيادة فرنسا الأم، بثقل مدرستها المبنية على الفصل والميزم العنصريين - لست خجولا من قول هذا بمرارة - وبلغتها المسيطرة وثقافتها الواسعة وفنها المتنوع وتاريخها المضطرب وصناعتها المتطورة وتكنولوجيتها المتقدمة وعمارتها الباهرة وجيشها المنظم، ولكن أيضا بقسوتها الظالمة عليهم.

إلى اليوم لا أزال أجد من الصعوبة أن أسوِّغ مبررا لغيري ممن يسألني من أهل هذا البلد عن توبتي أنا كفرنسي قبل دولتي صاحبة الكبرياء فأشعر بالذنب ولا سيما تجاه أحمد لمين.

قلت ذلك للأخ أميدي ونحن نعود من البستان حاملين سلتي البطاطا.

فرد عليّ:

الاعتراف يثبت في الضمير كفسيلة تنمو فتثمر توبة.

هذا المساء، وأنا أطالع في مكتبة الدير مقالة منشورة في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر عن الاحتلال الفرنسي لهذا البلد برغبة مستحكمة عندي في معرفة ما حدث في ألف وثمانمائة وثلاثين، استوقفتني كلمة الفتح، كما كانت كتبي المدرسية تسميه، وليس الغزو.

فرميت للأخ أميدي إذ وقف علي ينبهني إلى أنني قد أتأخر عن العشاء:

أن تفتح أرضا فهو إما أن تدخلها سلما وهي فارغة من الساكنة وهذه لم تكن حال هذا البلد.

فقال:

كريستوف كولومب لم يكتشف أرضا بكرا تماما.

فقلت، قائما:

وإما أن تدخلها بالحرب لتحتلها وهو ما حدث في هذا البلد.

عبارة الغزو، إذًا، التي تعني أن هناك صداما دمويا حصل، كان سيتأخر إدراكي إياها إلى ما بعد نشوب حوادث الثامن من مايو في كل من مدن خراطمة وسطيف وگالمة، التي تزامنت مع انتصار الحلفاء على النازية وتحرير باريس؛ فوقيتها كنت لا أزال طفلا في سن الثامنة.

قبل أعوام، كنت راجعت من أرشيف الدير، هنا في سيده الأطلس، تلك الحوادث فزادني ذلك على ما عشته في معترك حرب الجزائر شعورا بالذنب الجماعي؛ إذ في تلك الساعات المفعمة بالمباهج والأفراح والرقص والغناء والانتشاء حتى الثمالة وبالحب بلا موانع ولا حدود في باريس وبقية المدن الفرنسية، كانت تجري في هذا البلد خلال الساعات نفسها أعمال قتل وحرق وقصف، من البواخر الحربية الراسية في عرض البحر من جهة الساحل الشرقي، على الأهالي المتظاهرين المطالبين بالحرية والاستقلال. فتلونت الشوارع بالدم وفطر الألم القلوب وسكن الحزن الأرواح وملا المقابر النواح. ونبتت من يومها في النفوس بذرة حرب كانت ستقوّض إلى الأبد بناء تعايش هش ووهمي دام مائة واثنتين وثلاثين سنة.

قلت مرة معاكسا الأخ أميدي إذ أراني جواز سفره الجزائري وهو يستعد لرحلة إلى القاتيكان:

حرب تحرير كما تسمونها أنتم أهل البلد!

كنا آنئذ نتحدث عن منتصف ليلة البارحة التي عرفت إطلاق نار من ساحة المدينة ومن الثكنة العسكرية القريبة كما في كل سنة إحياء لذكرى اشتعال تلك الحرب.

فرد عليّ:

وحرب الجزائر مثلما لا تزالون تصفونها.

يصفونها هم في سردياتهم التاريخية وأدبياتهم الرسمية هناك وراء البحر.

أعرف قلبك.

لم تعد تلك الحرب بالنسبة إلي سوى تذكارات مؤلمة.

هنا ستشفى منه.

فمن قديري، خلال مساري، أن كنت أحد الشهداء على تلك الحرب. بل كنت ضالعا فيها. وحينها وجدتني مكبلا عن أكون سخيًا وعن أن أخدم الرب وأعطي من غير حساب، كما يوصي المسيح، لأنني لم أمانع، وهذا يخجلني كلما تذكرته، حتى لا أجدد للخدمة العسكرية، كما فعل غيري لا مبالين ولا مكترئين لما كان سيلحقهم من عقوبات ومن حيف وإقصاء من ذويهم أنفسهم ومن عبارات العار من زملاء لهم في الدراسة أو في العمل لأنهم في نظرهم تقاعسوا عن الدفاع عن الوطن الأم.

من نذر جسده وروحه للرب مثلي كان عليه أن لا يُذنب.

كذلك قلت للقس خلال اعترافي عقب نهاية الحرب.

فسألني:

ما ذنبك؟

خرجت عن وصايا الرب.

ماذا يقول الرب.

«لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تسلب...».

الحروب كلها بأنواعها وأسبابها كانت وستظل مستنقعا لفعل تلك الرذائل كلها.

كنت مجتئدا.

ماذا فعلت من ذلك؟

لم أشهد بالزور.

وقتل في بلد غير بلدك أناسا لم يعتدوا عليك في بلدك.

ربما.

أليس ذلك نوعا من شهادة الزور على التاريخ؟

أبي، هل لي من توبة؟

أنت تبدأ الآن. وستقطع طريقا شاقا وطويلة حتى تكمل توبتك.

إن أنا رجعت إلى تذكارات تلك الحرب انتصب أمام عيني، كما على شاشة، مشهد لحظة ارتدائي بزتي العسكرية واستلامي سلاحي والرمي بي في أجيج حرب شملت يومئذ أرض هذا البلد من صحرائه إلى بحره ومن جباله وغاباته إلى مدنه وقراه فغطى دخانها، كسحابة كونية داكنة، على شمس سلام لم يكن أحد من هذا الطرف أو ذاك لا يأمل أن تشرق قريبا.

خضوعي للتدريبات العسكرية، تحت مدربين شرسين وقساة إلى درجة الوحشية وعاهرين أبناء كلبة، هو ما كان أحدث في داخلي هذا الخوف من الآخر، الذي صار يحمل الآن في المواجهة سلاحا حربيا، فصرت، لا ملزما فحسب، بل مضطرا إلى قتله. فقد حدث أنه ما من لحظة قتال مرت بي في الجبال إلا ثارت في ذهني كلمة العريف الذي كانت تشحن صدره حمم من الحقد، هذا الكورسيكي الذي يزعم نسبا له إلى نابليون: «أحسن عربي في هذا البلد هو عربي ميت. اقتله قبل أن يقتلك. فإما أنت وإما هو. لا خيار آخر».

وقد أنهيت تدريبات مسار المقاتل، كنت قُلت نجمتي الضابط، فصار العريف روكاس هو الذي يؤدي لي التحية. ثم قطعت البحر من مرسيليا إلى مدينة الجزائر ومنها برا إلى المدينة. ثمة - ثمة صارت اليوم هنا - دخلت ثكنة العمليات الميدانية فحملت على رأسي بيرييه القتال الأحمر ويدي رشاشي. كم تمشيطا شاركت فيه. ثلاثة. وفي كل واحد كان هناك حرق بيوت ريفية أو قتل مدنيين هاربين نحو الجبال أو سلب ماشية، غداء للفيلق، وأحيانا اغتصاب وتعذيب. وكم اشتباكا فرض علينا. أربعة. أو معركة خضناها. اثنتان. وكم قتيلا من الطرف المقابل. كثير. إني لا أذكر ذلك كله إلا ككوابيس.

تسعة شهور، نصف مدة خدمتي العسكرية، كانت قد فاتت علي لما خرجت من الثكنة العسكرية، هذه المرة، بالكبيبي الأزرق، بدل قبعة القتال الحمراء؛ فدخلت مقر الفرقة الإدارية المتخصصة (2)، بصفتي ضابطا في المكتب الخامس الموكلة إليه مهمة الحرب البسيكولوجية. كان لا يخفى علي ما لتلك الحروف الثلاثة من شحنة الشؤم الذي تخلفه في نفوس الأهالي عند نطقها أو رؤيتها فوق باب المقر أو قراءتها في المنشورات الملصقة على الجدران أو النازلة من السماء من الطائرات أو سماعها مبثوثة من مكبرات الصوت المنصوبة على متن سيارات تجوب الشوارع، لزرع الشك في وجدانهم أن تكون هناك قوة تقدر أن تهزم جيشا نظامياً، مثل الجيش الفرنسي المسيطر بتعداده وسلاحه على الجو والأرض والبحر - يجب أن أستثني الجبال -، وعزلهم نفسيا وواقعا عن جيشهم الذي يخوض حرب تحرير.

فإني ما لبثت أن اكتشفت، للغرابة، أن ما تقدمه الفرقة الإدارية المتخصصة للأهالي، من خدمات صحية وتدريب على تعلم بعض المهن وتقديم مساعدات اجتماعية، لا تخرج عما في مشروع الكنيسة القديم في هذا البلد. علي أن أقول إنه عمل ظاهره العون وباطنه الوصول إلى قلوب أهل البلد الواقعيين في محيط الفرقة الجغرافي؛ ليس فحسب لإمالتهم إلى مشروع الجنرال الرامي إلى تحسين وضعهم الاجتماعي والتعليمي حلا بديلا عن حرب تحريرهم ولكن أيضا لاستقاء المعلومات عن شبكة العلاقات التي نسجتها منظمة جبهة التحرير معهم بواسطة خلايا الفدائيين في الحواضر والمسبّلين في الأرياف والبوادي

بصفتها العيونَ والآذان التي بها تبصر وتسمع كل ما يصدر عن الفرقة الإدارية المتخصصة وعن تحركاتها هي والجيش نفسه وعن المخبرين والوشاة من الأهالي وعن أفعال غلاة الكولون والأقدام السوداء؛ فإن تلك الخلايا كانت هي وسيلة الجبهة في تنفيذ أحكام الإعدام التي تصدرها على من يتعاون معنا باعتبارنا المحرضَ الأول على الخيانة.

أن لا أعترف أنني وجدت الفرقة الإدارية المتخصصة لا تعدو كونها مكتب استعلامات تابعة للجيش ومستنقعا صغيرا لمثلي، دخلته من غير أن أعرف عفونته أو أقدر تبعاته، ليس هو من نزاهة الضمير. فلكأنني فقدت، ولا أدري بأي سحر، جانب طيبة أمي وتدينها فغشي على بصري. أما قتالي في الحرب فكنت أؤديه واجبا.

فقد فات علي وقت، لم يكن بالطويل، قبل أن أعرف أن لوالدي دخلا في إلحاقني بالفرقة الإدارية المتخصصة، لكوني لطيف المزاج مع غيري أحسن الاستماع وأواسي. ولي، كما قال لي يوم أخبرني بالأمر، كفاءة خفية في الاستدراج والتلاعب بالعواطف. واستدرك أنه يقصد بالتلاعب التأثير النفسي على غيري بما لقلبي من صفاء، كما تقول أمي، وهو ما سهل علي فعلا الاقتراب من أهل هذا البلد.

الحقيقة، أن والدي فعل ذلك تجاهي لخوفه علي أن أقضي قتيلا ضمن وحدات الفيلق، التي كانت تخوض بلا توقف قتالا شرسا وضاريا في الجبال وفي مدينة الجزائر نفسها.

أنت لست حارس غابة فحسب. أنت عين لي في المحيط. وأنا يد لك في العون.

بذلك كنت نبهت السيد المأمون جد أحمد لمين في أول اتصال لي به بصفته أول متعاون معي من الأهالي يوم زارني في مكثبي باستدعاء مني.

فقال:

كن لي أكن لك، حضرة الضابط.

عهدٌ مني.

أنت تبدو عسكريا طيبا.

يعجبني الشجعان الصرحاء أمثالك.

فإنه سبق لي أن زرت المأمون قبل أيام في بيته. كنت في بدلتي المدنية وربطة العنق وكان هو في لباسه التقليدي بالعباية والعمامة. وقدمت له في حضور زوجته علبة شكولاتة وكرتونة سجائر وحُق مربى، عربون ثقة. فإن العقيد هنري، ضابط الاستعلامات في الفوج العسكري الثامن، كان، باعتباره أحد أصدقاء أبي، هو من دلني على المأمون، خلال عشاء في ليلة عيد المسيح بمطعم المدينة الكبير، إذ انشغلت له عن أنني أحب أن أقترب ممن أثق فيهم من الأهالي بحكم مسؤوليتي في الفرقة الإدارية المتخصصة.

أرجح، في الأحوال جميعها، حظي على نكدي أنني عرفت المأمون ليس فحسب لثقافته الدينية بما يحفظه من القرآن والأحاديث، فهو يصوم رمضان حتى ولو كان لا يداوم على الصلاة ويشرب الخمر يوم الأحد في الحانة التي يتردد عليها بعض الأهالي في المدينة ويحضر أعراس العائلات الميسورة ويشارك في عروض الخيالة بالبارود كما عرفت عنه من استعلاماتي، ولكن لوظيفته المهمة جدا؛ إذ هو يحصي جميع الرعاة والفلاحين والحطابين والفحامين في المنطقة ويعرف العائلات كلها وأنسابها وأملاكها وتاريخ علاقاتها مع الإدارة الفرنسية. وله قُرب وطيد من القياد والأغوات ومن رؤساء القبائل بما كان لأبيه من هيبة لتعاون قبيلته في محاربة الأمير عبد القادر؛ وفوق ذلك فهو يعرف كل من التحق بصفوف جيش التحرير ويعرف العائلات التي تتعاون معه وأفرادها في صفوفه ومن قُتل منهم.

وما طمأن نفسي أكثر تجاه المأمون أنه يتكلم الفرنسية بلكنة أهل البلد؛ لقضائه سنوات الابتدائي في مدرسة الآباء البيض فنال الشهادة الابتدائية التي بها وظف حارس غابة. فأتاح لي ذلك أن أتحدث، لأول مرة، عن الإله والعبادة مع رجل ناضج من ديانة مختلفة.

كان المأمون هو المسلم، وهو في قناعة كاملة بذلك. وكنت أنا المسيحي، المختلف عنه. سيكون من عدم اللياقة، وربما من النفاق، إن لم أقل إنه كان أمام كل منا حاجزه الديني.

فمثل المأمون، كنت أحمل في ذاكرتي، كما يحمل هو في ذاكرته بلا شك، ما خلفته ديانتني وديانته عبر قرون من تراكم أحقاد بسبب مآسي حروبٍ آخرها هذه التي استمرت سبع سنين ونصف السنة على أرض هذا البلد، نتيجة غزو بالسيف باليمين والإنجيل بالشمال.

فلو أنني ذكرت من الأصوات المزلزلة للكيان التي بقيت راسخة في مسمعي، خلال فترات قتالي، لقفزت في مقدمتها صرخة جنود جيش التحرير «الله أكبر»، في الكمان والاشتبكات والمعارك. ذلك لأنها كانت ذات وقع سحري في قلوبهم، بينما كانت لنا مرعشة ومربكة. وكانت تثيرني لحمولتها الدينية. غير أنني لم أقرأ، لا في بيان ثورتهم الأول الذي صادف إعلانه ليلة عيد الأموات، ولا في منشوراتهم السرية أو صحافتهم المحظورة المطبوعة في المغارات والأقبية بآلات الرونيو أو سمعت من إذاعتهم، التي تبث في ساعات محددة من المغرب ومن مصر، ما يُبيِّن أنهم يخوضون ضد فرنسا الأم حرباً مقدسة. بل يعلنون أنها حرب تحرير. وهذا ما كان يقوض عملي، أنا شخصياً. ويخلط علي مشاعري. ويضعني في موقف حرج تجاه ضميري قبل ترانيتي العسكرية.

ليس لأننا نخوض حرباً دينية بهذا المعنى ولكن لأن صورة الكاردينال لاقيجري كانت تثور في أعماق وجداننا بفيض شعور بالإهانة التاريخية.

بذلك أجابني يوماً، عن تلك الصرخة، أحد ضباط جيش التحرير وقع أسيراً بين أيدينا كان سيقضي تحت التعذيب خلال استنطاقه.

كنت لا أطيق تحمل درجة الوحشية التي غالباً ما كان يتم بها الاستنطاق. وكنت أحس أن جسدي لم يعد ملكاً لي بفعل جاذبية القتل والتلذذ بالتعذيب كلحظة تطهر خلال مشاهدة مسرحية. فأنت في الحرب، كي تتخلص من خوفك، تجد نفسك مضطراً إلى القتل، قتل عدوك وكأنك تقتل خوفك من خلاله. فإني لم أكن أتخلص من هاجس الخوف والموت،

برغم أنني لا أنساها، إلا في الأوقات التي تجمعني ببعض الرفاق في مناسبات قليلة على مائدة شرب أو غداء أو عشاء في المطعم الكبير بوسط المدينة.

في إحدى مهماتي خارج مكتبي بمقر الفرقة الإدارية المتخصصة، كنت توجهت إلى محتشد مسيِّج بالأسلاك الشائكة ومراقب بأربعة أبراج مجهزة بكشافات ضوئية عليها حراس مسلحون من الكومبية الأهالي تابعون لفصيلة المحتشد، لأطلع على أحوال المحشورين فيه داخل أكواخ؛ الذين هم جميعا من الفلاحين والخماسين والرعاة والعاطلين والمرضى الذين كانوا يسكنون متفرقين في دواوير ومدامر نائية على أراض بور وجدبة أحيانا محاذية غالبا لجبال وغابات يستغلون منها حاجاتهم من الصيد والحطب والفحم ويشكلون مراكز دعم وإيواء لمتبردي الجبهة. كان في رفقتي، إضافة إلى خمسة جنود مسلحين من الفرقة، حارس الغابة المأمون لأنه دليلي وترجماني أيضا.

ذلك اليوم، وأنا أتذكره الآن برعشة تسري عبر جسدي برغم درجة الحرارة الصيفية داخل غرفتي هنا في الدير، كان سيكتب عقد وفاتي. فقد كنت تقدمت من المحشورين وسط ساحة المحتشد حد أن لم يعد يفصل بيني وبينهم سوى بضعة أمتار ورحت أطمئنهم على أنهم في مركز عبور وأن وضعهم سيتغير. وكنت سأنطق أنني أعدهم بأنهم سيرحلون إلى مساكن في ضاحية المدينة لما خرج علي من بينهم فدائي مشهراً مسدسا في وجهي فاعتراني شلل عن أن أحرك يدي نحو سلاحه في حزامي فلم تكن سوى ثانية أو ثانيتين حتى سقطت على وجهي وفي أذني لعلعة طلقة طاشت تلتها طلقتان أخريان من خلفي.

كان المأمون هو من دفعني أرضا، منقذا حياتي. وهو الذي أسعفني على النهوض، سائلا إياي إن كنت بخير، وسط صمت ثقيل من حولي. فحركت رأسي ناظرا إلى الفدائي ملقى على ظهره ساكنا وسط بركة دمه وقريبا منه جنديان من الفرقة كان أحدهما، وهو من الرماة، قد أصابه في الرأس والقلب. ثم حمل مسدسه وتراجع خلفي.

كم كانت تلك اللحظة طويلة، برغم ثوانيتها المعدودات التي فصلت بين بقائي على قيد حياتي وبين ذهاب الفدائي إلى الأبد! لماذا لم تصبني رصاصته؟ هل لأؤجل لأكون شاهدا

على تراجيديا عبثية. لماذا قُتل؟ ليرسم بدمه طريقا كي يخوضها نحو الحرية من خرج من بينهم. فقد تحولت عنه عيناى آليا، على إحساسى بالغيثان، لتتمسما على وجوه المحشورين نساء ورجالا وأطفالا وسطهم لا يبدون مفرعين مرعبين بل متجهمين غاضبين تبرق من عيونهم هذه النظرات الصوانية وكأنهم بغتة مُسخوا حجرا في قفر أو أصناما خلفتها حضارة بادت.

ذلك، بينما تقدمت امرأة في لباسها التقليدى، من عباءة بيضاء بحزام من الصوف المزركش، منتعلة بلغة حاسرة الرأس بلا زينة على وجهها الأبيض ولا كحل في عينيها. ووقفت على جثة الفدائى فتأملته في سكون مهيب. ثم نظرت إلى المأمون، واقفا بجانبى، نظرة نارية، لن أنساها أبدا، حملت كل الألم وكل الغضب وكل الحقد. ولم تُدر إلي طرفا. كانت في سن الثلاثين أو تقريبا، مثل سن الفدائى. فإنها سحبت نفسا عميقا جعل صدرها يبرز بشكل لافت وحجرتها تتغضن. ثم فتحت فمها، وقد انشاحت أسارير محياها، كأنه من فرحة. ودوّرت لسانها مزغردة زغردة فجّرت الصمت المطبق على المحتشد، اقشعر لها جسدى، تلتها زغردات أخرى من وسط المحشورين لم تلبث أن توقفت فجأة، كأنه بإيعاز صادر عن جهة خفية - كنت سأعرف من المأمون أن تلك المرأة هي زوجة الفدائى القليل.

إثرها، تقدمت منها، نحو الجثة، ثلاث نساء أخريات من أعمار مختلفة أكبرهن كانت هذه التى تُبرقش خديها وذقنها أو شام؛ بينما تحرك الجنديان لصدّهن فأشرت إليهما بالتراجع. وبطرف عدت إلى المأمون، وكأني كنت لأسأله عن شعوره، فألفيته غارقا تماما في تفكيره تجاههن. فإنهن طأطأن على الجثة وحملنها من المعصمين ومن الكاحلين عائدات بها إلى وسط الحشر الذى انفتح لهن ثم انغلق. فبرق في ذهني انفلاق البحر أمام موسى. ورأيتني أنا الذى أطبق عليه الفرقان.

شعرت، وذلك لأول مرة، وأنا أوّلى عن الحشر، متقدما الجنود الخمسة ومن خلفنا المأمون، بأني تلقيت هزيمة نفسية حرمتني النوم لليالٍ لتتحول مع مرور الوقت إلى نكسة جعلتني

أراجع نفسي في ما ظللت أعتقده قضية شرف أن أقاتل من يحاربون فرنسا من أجل استقلالهم.

إن الله قادر على كل شيء.

نطق لي المأمون عند مدخل مقر الفرقة الإدارية المتخصصة بعد أن أطلعني على من تكون تلك المرأة التي وقفت على الفدائي.

فرددت عليه، وقد رمى قدما خارج سيارة الجيب بجنبي:

سأصلي من أجلك.

شكرا لك. ولكن المسيحيين لا يعرفون كيف يصلون، كما تقول أمي.

اعتن بنفسك.

الكاتبة تَلْحَقُ.

هكذا نطق المأمون عبارته بالعربية وهو يغادرني. فلم أدرك معناها إلا لما سألت إحدى العرافات كانت تتردد من حين إلى آخر على مكتبي لتسأل عن ابنها المفقود.

فأجابت:

نحن لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

فقلت:

نحن كذلك لا نسير إلا بإرادته.

لم ترد. هزت رأسها فحسب هزة لم أتبينها أكانت موافقة أم جحودا. في تلك المرة، وكانت الأخيرة، لما أخبرتها أن ابنها يحمل السلاح في الجبل فاجأنتني: أتمنى أن لا يلاقي بينكم القدر.

متى؟ الآن أو بعد نهاية هذه الحرب؟

تجاهلتني وتولت تاركة سؤالني في حلقي. كانت تتكلم فرنسية صافية.

في روما، خلال سنتين مثمرتين وزاخرتين قضيتهما في دراسة اللاهوت وتعلم العربية بمعهد الآباء البيض البابوي للدراسات العربية والإسلامية، كانت الآية ١٦٩ من سورة آل عمران قد استوقفتني طويلاً؛ فرحت أتخيل تأثيرها على شعور مسلم يُمتحن في دينه، الذي يعني له الأرض والدار هنا، فيكون جزاؤه هناك لقاءً وجه ربه فرحاً، قبل أن أشاهد ذلك عياناً على وجه زوجة الفدائي، تلك المرأة التي أطلقت زغرودة في المحتشد. وهو ما كان سيشغلني من يومها بالموت عند ذلك الفدائي وما تركه موته من أثر عند زوجته وعند من كانوا جميعاً في المحتشد، الذين لم يكن المشهد بالنسبة إليهم تطهراً بل رسماً للطريق نحو الشهادة التي ترفع عن الأموات منهم كل ذنب ودرن وجنابة. فقد صار لي أن أعرف أن من يقتلهم جيشنا أو من يقضون نَحْبهم تحت التعذيب، وهذا أمر لا يمكن إنكاره لأنه كان سلوكاً يومياً منتظماً حسب بروتوكول يحدد طبيعته ودرجته، لا يُغسلون ولا يكفنون كما يُغسل ويكفن بقية الموتى في دينهم، قبل دفنهم، ولا يقام لهم عزاء ولا يلتزم تجاههم بحداد؛ بل تعلن لهم زغرودة لأنهم فازوا بالشهادة.

كيف لجيش كجيشنا أن يهزم مثل هذه القوة الاستثنائية المنبعثة من قلوب تسكنها نار دين مثل دينهم!

كنت أجب محتاراً العقيد هنري الذي كان جاء إلى مقر الفرقة الإدارية المتخصصة يستقضي تبعات حادثة المحتشد.

فقال.

كريستيان، أنت ضابط المكتب الخامس. وأنت هنا من أجل العمل على فلّ تلك القوة
بالأساليب النفسية. نحن نعرف أننا بالسلاح وحده لا يمكن أن نهزم عزيمتهم على إخراجنا
من هذه الأرض. يجب أن نردعهم بكل الوسائل.

حضرة العقيد، أخشى أن الأوان قد فات. لقد صاروا في بعد آخر.

أي بعد؟

الموت من أجل الحياة.

سنزود الفرقة بما تطلبه من دعم. أنتظر تقريرك.

بعد ثلاثة أيام من زيارة العقيد، الذي كنت رفعت له تقريراً عن حاجة الفرقة إلى بناء
مدرسة ومستوصف لاستقبال الأطفال والمرضى من حي العين الكبيرة من مدينة المدينة،
بنيّة أن أتخلص من أمره لأنني كنت أدرك استحالة تحقيق ذلك، تلقيت مكالمة هاتفية عن
مقتل المأمون غير بعيد عن باب الحانة التي كان يتردد عليها. كان قاتله، كما علمت من أحد
الشهود هو عين لنا في الفرقة، انتظره أن يغادر عند منتصف النهار من أجل الغداء في
محل للشواء على الرصيف المقابل من الشارع. وخرج في إثره من الحانة فإذا صرخة امرأة
ارتفعت تفرّق إثرها في كل اتجاه من كانوا في الشارع والجوار. إذ وصلت، رفقة جنديين
وسائق الجيب، وجدت المأمون لا يزال ملقى على بطنه، ذراعه منتشرتان كجناحي حمامة
عجزت عن الطيران واستسلمت لموتها، وفأس حطب من نوع الشاقور مغروسة في رأسه
من الخلف، على جانبيها نثار من مخه. كان المقبض الخشبي جديد النحت وكأنه بري قبل
لحظات من تركيبه في عين الفأس التي يبدو أنها شحذت للغرض بآلة كشط.

تلك الهيئة التي رأيت عليها المأمون ظلت تحتل ذهني أياماً فتأرقت من هولها ليالي
وغزنتي كوابيس كان أفضعها أني رأيت نفسي مرة تلقيت الضربة نفسها فأفقت أتحسس

رأسي. ثم أشعلت الضوء فأخذت الكتاب المقدس، الذي لا يفارق الطاولة بجانب سريري، كما هو الآن، ورحت أقرأ. كنت أقرأ فحسب لألوذ بالفرار من هول صور الحرب ومن الخوف من الموت فيها. ثم ها هو المسيح، إذ رفعت رأسي عن الكتاب، قابلني مصلوبا وعلى رأسه إكليل شوكة وجراح جسده تنزف. عندها، نزلت من سريري وجثوت راكعا.

أيها الرب، أيها المخلص، أنا الجمل الضال أهرب إليك. فخذ بيدي.

المأمون كان جرحي في تلك الحرب. وكان موته خطيئتي. فقد نسيت اليوم كثيرا من آلام جسدي، تلك التي برأت منها، وما أنساني روحي عذابه الذي خلفته تلك الحرب. المأمون فداني بحياته. مات من أجلي. فما الذي فعلته من أجله؟ وماذا لو لم أكن أنا ولم يكن هو ولم تكن تلك الحرب ولا كان الاحتلال. المأمون لم يقتله جنودي. قتله إخوة له في الدين والدم عقابا له على نصرته كافر. في تأملي لم أجد أن ذلك كان هو الداعي. إنما قُتل لاختيار صفه في حرب تحرير لم تكن لتتيح لأحد التوسط في نارها. فأنا، لما ارتديت البزة العسكرية وحملت السلاح وجئت هذه الأرض لأميل أهلها إلى مشروع فرنسا الأم ليكونوا جزءا منها، كنت اخترت صفي. ولو لحين.

البارحة، فحسب، وقد ألقيت رأسي على وسادة سريري، بعد آخر صلاة، عادتني حادثة المحتشد فطاف على ذهني خيال المأمون وهو يرتمي بجسده على جسدي، صدره على ظهري، حتى لا تصيبني رصاصة الفدائي. وعاودني السؤال لماذا فعل ذلك، أليُظهر أنه كان بين صفيين فلا أراد للفدائي أن يقتلني ولا أراد لي أن أموت؛ فقتل الفدائي وقُتل هو من بعده. وها مثل نور صاعق، في ظلمة غرفتي هنا في دير سيدة الأطلس، بدد كل صورة في ذهني. وها صوت خرج من حلقي الحرج.

إن يكن المأمون أعطى دمه من أجلك فإنما لأن الرب أراد ذلك لترجع إلى طريقه فيأخذ بيدك.

فدى المأمون إياي تكلل بالدم كي أوْجَلْ ليس إكمالا لخدمتي العسكرية قبل سنة من نهاية الحرب وخلع البزة ووضع السلاح ولكن بحثا عن الحب الأكبر في هذا البلد الجميل، أحد ممالك الإله الساحرة.

فمثلما تنفرج ظلمة الليل عن السماء فتشرق شمس صباحها نورا، كانت العناية أضاءت طريق عودتي إلى هذا البلد الذي يسمى الجزائر طامعا في تسامح أهله، الذين صرت أعرف لغتهم ودينهم وعوائدهم وتاريخهم ووجدانهم كما عرفوني في جبة الراهب لا أحمل لهم في صدري سوى قلب ينبض محبة، على يقين بأنهم سيقبلون توبتي، لأنني جعلت من سيدة الأطلس، في تيبجيرين الخصبة التي تحيطها جبال تمرْگيدة وبوْگرة المقدسة بأسرارها، هي مأواي النهائي في ملكوت الإله.

وها هي سيدة الأطلس غدت هي كنيستي الثانية بعد كنيسة أمي. غير بعيد عنها، أسمع خمس مرات في اليوم هذا النداء الخالص لوجه الإله فأحس الطمأنينة التي هي من نبض الإسلام وسر من أسرار الخلاص الإلهي.

فأنا اليوم في سيدة الأطلس أعيش حقا وصية القديس بونوا لا أفعل شيئا غير أن أصلي وأعمل حتى آخر يوم من حياتي، قلت واقفا أمام العذراء في ساحة الدير بعد خروجي من صلاة الثالثة ثم توجهت إلى البستان حيث قال لي الأخ أميدي: الصلاة والعمل هنا في دير تيبجيرين بدار الإسلام يختلفان في العرض والجوهر عن أي صلاة وعمل في دير آخر في بلاد مسيحية.

فقلت:

الحرب علمتني أن أنظر بعينيّ معا وبقلبي وبحواسي إلى أهل هذا البلد.

أخي كريستيان. أنت اليوم صرت قريبا منهم. وهم لن يجحدوك.

هو أمني. رعتك العناية.

هنا، في تَبِيحِيرِينَ، لم أَلَمَسْ فحسب دَفءَ الجيرة ممن يحيطون بالدير من المسلمين ولكن أيضا التعاون منهم ومعهم. ظل ذلك قائما بيننا في التعامل وفي السلوك إلى هذه الليلة التي دخلت علينا خلالها مجموعة مسلحة من إخوان الجبل. وتحت التهديد حاولوا منعنا من إقامة الاحتفال بعيد الميلاد. فقابل الأخ لوقا قائدهم، لأنه كان يعرفه، وقال له: إننا في هذه الليلة المقدسة نحیی مجيء أمير السلام، السيد المسيح. كما يحيي جيراننا المسلمون مولد النبي محمد عليه السلام فنبارك لهم.

لم ينطق ذلك القائد كلمة. وأشار برأسه نحو جماعته بالانصراف.

كان اقتحام الدير في تلك الليلة رسالة، كأنها من غيب، أُنذرتنا بوقوع شرور آتية.

الأخ برينو. هزطقة أم زرع وزدة

إن كنت مع الأخ كريستيان جنيت مرة بطاطا، وهي في الحقيقة مرات سابقة ولاحقة بالنسبة إلى خضار أخرى، فإني كنت مع الأخ برينو في البستان نجني تينا خريفيا، ملأنا به سلة ضفرتها بيدي من نبات الدوم، إذ تمردت عليه زفرة استغرب لي على إثرها بنبرة حنين أن يكون بلغ في ذلك اليوم سن الخامسة والستين - كنا يومها في نهاية صيف عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين. وقال: وددت لو يمتد بي العمر فأصلي وأعمل أكثر لأمحو جميع خطاياي فأكون من الصالحين.

ليس بطول العمر، أخي برينو، يحسن إيماننا ويصلح عملنا إنما بما تحمله قلوبنا لغيرنا.

أحيانا أتصور حياتي أقل ديمومة من فراشة في هذه الدنيا وأشدَّ قصرا من سحابة صيف. وأحيانا أخرى أراني عريت من ثوبي وجريت في حقل قَرَّاص يلسع جلدي.

ستعمّر فيصَحّ تعميدك. وستظل لابسا ثوب الإيمان. وستلمس شعاعا من يد الإله تقودك إلى فردوسه. فلا زمن يمتد لمخلوق إلا ما قدر له لأن الزمن هو الإله وهو اللانهاية.

رددت على الأخ برينو وبي إحساس أني مجرد قبسة برق تشع في هذا الوجود ثم تختفي.

وقدمت له حبة تين. فتبسمت لي عيناه من خلف نظارته الطبية على انشراح ملامحه
الوادعة.

وقال:

ألم يقل المسيح عن شجرة التين «لا يأكل أحد منك فاكهة بعد».

ذقها إن كانت لذيذة بما يكفي حتى تصنع لنا منها مربى سائغا كما أنت تصنعه من المشمش.

زمن، وأي زمن، فات اليوم على ذلك! وها الأخ برينو يقول، مثلما خطّه.

غالبا ما وجدت الأخ أميدي تجاوز كثيرا من الوصايا فارتبكت لذلك. ولكنه كان ما لبث
يومها أن طمأن قلبي على أن الإله لم يخلق عبثاً شجرة التين ومثلها شجرتي الزيتون
والنخلة. فهللت: بركاتك!

آناء تأملاتي، رددت عن نفسي أي تفسير أو تأويل لوجودي في سيدة الأطلس من دون بقية
الأديرة كلها في هذا البلد من دون بقية البلدان جميعها. فلم أشقِ روعي ببحث عن فك هذا
السر سوى أن الإله كان دعائي منذ تعميدي لأن أهاجر لاحقا إلى دار الإسلام فأنزل هنا في
تَيْبِجِيرِينْ فتغمرني سعادة روحية لا أعتقد أن لها مثيلا في بقية أرضه. إنما صروف الدهر
وأخطاء الإنسان، أخطاؤنا جميعا، وإغواءاتنا هي التي هزمتني غير مرة وغير مرة نهضت
فعاودت مجاهدتي إياها. فكل شيء في تَيْبِجِيرِينْ بسيط ومفعم بروائح الطبيعة النقية
الزكية، لكأنها نفحة من الناصرة؛ وكذلك أتخيلني فيها في حضرة المسيح.

إن يكن مولدي صادف الاحتفالية الكبيرة الضخمة والضاجة بمرور قرن، مائة سنة عدأ،
على بسط فرنسا سيادتها بالقوة على هذا البلد وجعله مقاطعة تابعة لمقاطعاتها وراء

البحار، فإنما بقدر، كما كان أبي سيحدثني، وأنا في الخامسة عشرة، غداة الأحداث الدامية التي عرفتتها الجهة الشرقية لهذا البلد تزامنا مع تحرير باريس.

ولم يُخف عني، وهو ما أذكره لنفسه الطيبة، أن تلك الاحتفالية كوّست في ذهنه، مثل ملايين الفرنسيين في الميتروپول ومئات الألوف هنا من المستوطنين الأوروبيين والمعمرين من الأقدام السوداء ورجال الدين، تحت حماية الإدارة والجيش، وهماً بأنه لم يعد لأي مقاومة وجود أو أثر بعد أن دخل الأهالي كافة في سلم فرنسا.

وقال لي.

كان لروما هي أيضا سلمها قبل أن تُسقطها غطرسثها.

فإني ظللت لوقت أجد أبي، في ما جمعني به من نقاش وحديث عن الاحتلال ومآله، على تشاؤم مزمن من صدام دموي قد يقع ذات يوم فيشمل البلد فيكون أكثر اتساعا وأشد عنفا ودموية وأقرب إلى مأساة منه إلى حرب. اليوم أجد أبي كان على استشراف نبوئي.

في سن الرابعة والعشرين، تذكرت حديث أبي إذ أصبحت غداة عيد القديسين، عيد الأموات كما يسمى هنا، على صحف الميتروپول تتحدث عن عمليات مسلحة ينفذها خارجون عن القانون من الأهالي. غير أنه لم تكن سوى أشهر مرت حتى ظهر، في الصحافة المحلية نفسها وهي تخرج عن تكتمها، أن ما حدث في ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر إلى أول نوفمبر من عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين كان شرارة ستشعل نار حرب تحرير مسلحة شاملة.

إن كان من نصيبي أني ولدت في خضم تلك الاحتفالية أفهو من حظي، أو شيء آخر غيره، أن تقاطع مسار حياتي في مرحلة حاسمة من عمري مع مسار أخي كريستيان؛ إذ مثله لبست البزة العسكرية وحملت السلاح. ومثل أبيه كان أبي ضابطا عسكريا في الجيش الاستعماري ترحلت معه العائلة إلى بلدان كانت بالنسبة إلي قبل أن نحل بها مجرد مواقع

ونقاط في خرائط لتضاريس من درس الجغرافيا وأحيانا التاريخ، قبل أن أكتشفها ليس فحسب كما صورتها لخيالي قصص من ألف ليلة وليلة، من دون أن أكون على بساط الريح، ولكن أيضا على حقيقتها بسحر مدنها وبطبائع شعوبها المختلفة وعوائدها وطقوسها ودياناتها وثقافاتهما المسالمة أو المحاربة أو هذه وتلك معا. وها أنا في سوريا وفي الطونكان بالهند الصينية ثم في الجزائر، هذا البلد الذي يفصله عن بيتنا العائلي البحر المتوسط جنوبا.

يوم عدت، في مرحلة لاحقة، إلى الجزائر ومنها إلى أوريونقيل، مدينة الشلف حاليا، كنت في بزتي العسكرية حاملا سلاحي، مجتندا لأداء خدمتي العسكرية، ولا شيء في ذهني عن الحرب إلا ما كنت أسمعه، مدفوعا من داخلي بهذا الذي يحفز أغلبية المجندين مثلي على الاكتشاف، إن لم يكن على المغامرة؛ بينما فكري يعود بي إلى تلك الرحلات الاستثنائية في آسيا رفقة أبي مع العائلة.

بل، إنه دغدغني شعور بأن خدمتي العسكرية ستكون رحلة سياحية، مجانية وباهرة. بل وملهمة، كما كان أبي تظرف لي، وهو يخفي خشية علي، هو العسكري الخبير المطلع والعليم بشؤون هذا البلد وتاريخه وثقافته وديانته. فقد سبق لي أن قرأت له مقالات في المجلة الإفريقية المتخصصة في شؤون من كانوا يسمون الأنديجان، أي سكان هذه الأرض الأصليين وطبائعهم. ذلك أن أبي لم يكن ضابطا عاملا فحسب ولكن كان أنثروپولوجيا أيضا.

خضت حرب الجزائر، إذًا. وها أنا أسترجع، من كل ما كنت تلقيته خلالها من رسائل واردة من أمي ومن أبي أحيانا ومن رفقاء جمععتني بهم الخدمة العسكرية لمدد قصيرة فكان بعضهم نقل إلى جهات أخرى أو رقد في المستشفى على جراحه أو سُرح، رسالة الأخ كريستيان كاتبا لي: العزيز برينو. يا لهذا القدر الذي أوجدنا في هذه الحياة، في هذه الفترة التاريخية المتحولة، المضطربة والمؤلمة! إنني أرانا، نحن هذه البشرية التائهة، ما كدنا نخرج من حرب كونية مأسوية مدمرة للإنسان والطبيعة والعمران مخلفة كل تلك الشروخ

والآلام والأحزان، وكنا عند إنهاؤها أخيرا بذاك السلاح الجديد الفتاك ذي الدمار الشامل الذي اخترعته أنانية الإنسان ردا على وحشية الإنسان نفسه، نأمل أن ندخل في عهد جديد خال من أي توتر، بسبب التوسع والتزعم، لا يقود إلى أي حرب جديدة تتجدد بفعلها الأهوال فتحدث الويلات ويعقر الضمير الإنساني في مستنقع الحقد من جديد، حتى ها حرب تندلع هنا في هذا البلد. أعلم أنك تعرف أنه لا أنت ولا أنا كنا نتوقع أن نكون يوما من الشهود عليها، بل من الضالعين فيها. اسمح لي أن أقول لك، بدءا، إنني أشعر بظلم لا أدري كيف أشرحه. ربما أنا لا أريد. وهذا يخجلني. لعلي أجبني أيضا. غير أن ما قد يسعفني على إيجاد بعض التوازن في روحي هو أن أعثر لديك على بعض ما تقاسمني إياه من ذلك الشعور. أنتظر فحسب أن تعبر لي عنه صراحة أو ضمنا. أعرف أنك لن تخذلني. أما الشعور بالذنب، أما التوبة وأما الاعتراف فلكل منا ما يسعه من الوقت، على قصره بالنظر إلى حياتنا المحدودة في هذا الزمن، كي يجد السبيل إلى ذلك. والمجد للأب والابن وروح القدس.

تصرّمت فترة الحرب هنا، ومعها توقفت أهوالها، مخلقة آثارها المؤلمة في ذاتي وروحي، أنا المسيحي الذي يحمل في عروقه دم أمه البروتستانتية، التي عائلتها على هذا المذهب، ودم أبيه الكاثوليكي، مزيجا جرى في شراييني فكانا، حتى قبل أن أدخل الكنيسة طفلا، بعد تعميدي صبيا، هما، لالتزامهما الديني، من أورتا قلبي حرارة إيمان كانت تخبو أحيانا، بفعل طيش الشباب وهوى النفس وطعم اللذة وزينة الشيطان وأرق الشك وقسوة الحرب لاحقا، من غير أن تنطفئ فلبّيتُ بها نداء الرب يوم دعاني أخيرا إلى تبيّجيرين. لعله لكون قلبي أشع من قبل بهذه الكلمات القدسية.

«ليمجد الرب والابن والروح القدس في كل مكان بطهارة العذراء مريم».

كلمات كانت ستنقش في ذاكرتي، مثل الحروف الهجائية والأعداد في المدرسة، مذ تلقفتها عيناى مكتوبة بخط قوطي في نصف دائرة حول صورة العذراء التي تشرف على مصلى الكنيسة فنطقتها لأمي بجنبي على المقعد قبل أن يبدأ قداس الأحد فرددت بالهمس «الليلويا» فحسبثني صرت قديسا.

ثمانية عشر شهرا هي المدة التي دامتها خدمتي العسكرية؛ بعدها كنت رددت على رسالة الأخ كريستيان، كاتباً له أن فترة تجنيدي، خلال الحرب، كانت عابرة وزاخرة بفشل سعيد جدا كوني لم أجد نفسي يوما في موقف اقتضى أن أقتل غيري أو أن أعذبه أو أمر بذلك أو أغتصب؛ وكم كانت هذه الحالات من الاغتصاب في عمليات التمشيط في الأرياف على نساء الفلاحين وبناتهم تثير غضبي وسخطي وقرفي من همجيتها وحيوانيتها.

لم أكن أعلم ما حتمت الحرب على الأخ كريستيان أن يفعله أثناءها. ويوم لاقتنا سيدة الأطلس، تجنبنا، كأنما باتفاق ضمني بيننا، أن ننبش في دفائن تلك الفترة من حياتنا؛ فذلك، لو فعلنا، لم يكن ليخرجنا فحسب ولكن كان سيثير في نفسينا الشك من جديد في جدوى أن نكون راهبين أصلاً قتلاً أو لم يعترضنا على القتل.

ولكننا غالبا ما اضطررنا في حوارنا الثنائي، بفعل هذه الحرب الأهلية الدائرة اليوم، إلى إقامة توازيات بينها وبين حرب الجزائر التي سبقتها، بصفتها شبيهة لها لأنها دارت بين ساكني أرض واحدة تحت حكم واحد؛ ولو أن الأخ أميدي ظل يعارضنا معتبرا الأولى حرب تحرير دارت بين أهل البلد وبين المستعمر بينما الثانية، هذه التي تجري اليوم، يخوضها أهل البلد فيما بينهم.

فما الذي أسكتنا عن أن نُحدث ولو خرقا بسيطا في جدار نوايا إخوان الجبل تجاهنا إذ جاءوا إلى الدير صباحا لأخذ ما حضرناه من الجبن ومن الخبز؟

كذلك تساءل لي الأخ كريستيان بنبرة عتاب في غرفة العولة.

فقلت:

كيف؟

بمحاورتهم.

إخوان الجبل يعرفون تماما أننا ندرك ما يفعلونه بنا لو أنهم أخذوا الحكم.

مثلا؟

كيف، مثلا، أخي كريستان؟ فيما أن نغادر أو نصير زميين أو أن نُقتل.

سامحني إن قلت إنني نظرت إليك دائما نظرة مثقف لأنك تملك وسائل الحجة وقوة الإقناع بها.

ساعتها، كنا نملاً بالعسل المحفوظ زجاجات من سعة نصف لتر لبيعها، في حين كان بقية الإخوان في هذه الفترة التي تلت صلاة الثالثة بعد الزوال منكبين على أشغالهم الموزعة في الدير مثل نحلات في بداية هذا الربيع.

فقلت:

أخي كريستيان. حتى ولو كنت أبدو أحيانا مثقفا بالمعنى المتداول، لأنني أحب الاطلاع على ما يحيط بنا من شؤون السياسة وغيرها وأهوى قراءة ما يخرج أحيانا عن ميقات سجّل راهب في دير، فإني مرهون لصلاتي وعملي. مثلك. ولست، لشغفي بالجدال أحيانا أخرى، فيلسوفا ولا عالم دين.

أعرف ذلك، أخي برينو. وهو ما يقربني إليك أكثر من أي أخ آخر.

خشيت دوما الوقوع في مستنقع الهرطقة. أحب أن أنشغل أكثر بما هو طقس ديني وبالأعمال اليدوية. أن أزرع وردة أو أبذر حبات جلبان أو حمص أو عدس أو لوبيا أو غيرها مما في البستان وأرعها وأجنيها أفضل عندي من تأملات قد تحيي شكوكي المدفونة.

ولكنك، برغم ذلك، على روحانية تثير الغبطة.

لا أشعر أنني خلقت لأملك الأسرار أو أوزعها. لهي سعادة روحية أن أشق لنفسي حياة من الإيمان والزهد والتواضع والحب، على طريق المسيح. حياة خالصة للرب ومنذورة لخدمة إخواني في هذا الدير وجيراني من المسلمين.

إنني أسمع قلبك هو الذي يتحدث. لي مثلك رغبة في أن نموت راهبين. هنا أشعر، كما تكون شعرت أنت منذ أن عتبت باب الدير مثلي، بفراغ يملأه وجه الإله.

فعلا. فراغ لا يشبه أي فراغات أخرى.

لأننا نحن وعاؤه. فراغ طاهر يتحتم فيه الروح، رد الأخ كريستيان.

ونبهني إلى أن مخبزة الدير في انتظارنا لتحضير فطائر وجبة صباح الغد.

أمس، وأنا قاعد على حجرة في مرتفع الدير من حيث مصب العين نحو الحوض إلى الأسفل الذي منه يسقى البستان حسب نظام التقطير الذي صممه ووضع الأخ پول، ملأني الفراغ بكل ما هو سحري هنا، في سيدة الأطلس، وسط هذه الجبال التي تحيط بها مثل عين للإله تحرسها. وها حنين مبالغت رماني إلى ما خلف البحر هنالك، فقبضت أصابع يسراي إلى كفي أتحمس حرارة يد أمي تدخل بي باب كنيسة الحي. لماذا أمي التي هي الآن في السموات؟ ثم، وأنا أعود على صوت ناقوس الدير لصلاة الساعة السادسة، رفعت وجهي إلى الأعلى.

إلهي، ماذا كنت سأصير لولا أمي وقلب أمي وحب أمي.

في يوم تال بعد العشاء، ونحن نجمع الصحون والملاعق لغسلها، سألني الأخ أميدي، الشيخ كما يصفه جيراننا المسلمون، إن أنا مرتاح، وكانت أساريير وجهي غير المبسوطة هي التي تكون أنمت إليه ذلك. فأبثت له عما كنت أشعر به فعلا إذ كيف لا يكون كلامي على لساني هو ما يصدر عن قلبي.

وأجبتة:

اثنا عشر راهبا في دير كبير وواسع كهذا الدير عدد قليل.

هذا صحيح.

والوسائل المادية الضرورية للتعيش المتاحة لنا فيه باتت ضئيلة.

وهذه حقيقة أيضا. لكن بإيماننا وصلواتنا وأعمالنا وتأخيننا وتوطيد علاقاتنا مع جيراننا من المسلمين سنشعر بما يطمئن نفوسنا.

فقلت، وبذهني تمر أخبار التفجيرات والاشتباكات الدموية والقتل والقتل المضاد والاعتقالات لمدنيين مواطنين وأجانب ورجال دين مسلمين ومسيحيين.

كيف يكون ذلك وسط هذه الظروف الأمنية الصعبة!

ذلك كله ابتلاء لنا. نحن رهبان وسنبقى رهبانا. إنها إرادة الرب.

قلت، على شعور بضيق مبالغ:

تمنيت في أعماقي لو كان هناك متسع للصليب أكثر مما هو عليه في البلد.

فرد علي:

سيخفف من تعب روحك جراء هذه الأسئلة المشقية أن تتمسك بصلاتك وتتقبل حالك وفقرك وتذكر دائما أنك في دار الإسلام.

ثم وضع يده على يدي، برغوة صابونها.

وقال:

ليس هناك فقر روحي حقيقي من غير فقر مادي واقعي.

إذ افترقنا، فدخلت غرفة نومي، جثوت، كما لم أجتُ من قبل، بحزن غامر، أمام المسيح على الصليب: ها أنا أمامك أيها الرب مدثر بالفقر محاصر بالعسر. ها أنا أمامك بقلبي الذي هو لك أنت الذي لست سوى محبة ورحمة.

في الغد، وأنا في الحقل، أحفر لأشجار تفاح جديدة، كان مرزوق، الشخص الآخر الذي يتعاون معنا في رعي قطيع الدير وفي بعض أعماله الزراعية، وضع الغرسات التي حملها إلي ثم ابتعد عني أمتارا فنزع حذاءه وتوجه إلى القبلة، حيث مشرق الشمس، فصلى صلاة العصر على التراب. في الأثناء، تذكرت أن ما نصحني به الأخ أميدي تجاه جيراننا من المسلمين ولا سيما المتعاملين معنا، عند التحاقي بدير سيدة الأطلس، كان أن لا أقف أبدا في طريق صلاتهم وأن لا أسألهم عنها ولا عن كيف يؤدونها ولا عن ضرورتها لهم أو عن اختلافها عن صلاتنا. وزين لي أن أقول لمن أنهى منهم صلاته، وكنت حاضرا بجنبه أو مسافرا معه عبارة «الله يتقبل». ومن حرجي أنني كنت أنطق حرف القاف كافا. وذلك ما رددته لمرزوق بعد أن أنهى صلاته والتحق بي فرد بكلمة آمين، التي وجدتها توحدنا في رجاءاتنا نحو خالقنا. وقلت في نفسي فما أقرب القلوب من بارئها!

ولكن مرزوق كان، قبل أسبوع من حلول فصل هذا الربيع، جاءني إلى ساحة الدير في جلابة صوفية، على غير عادته عندما يخرج بماشية الدير إلا أيام المطر والثلج، وقد كنت فرغت فوراً من صلاة الصباح، فألقى السلام في تشوش، باديا لا يتحكم في حركة يديه ليدخلها في فتحتي جلابته.

وقال، من دون أن يذكرني بالاسم:

لم أخرج الحيوانات من الزريبة. أنا مضطر إلى مغادرة هذا المكان نهائيا. جئت أخبركم حتى لا تنتظروني.

فقلت:

سعيد لك، يا مرزوق، إن كنت وجدت عملا أفضل من الرعي.

لا. لا! فأنا آخذ العُشْر. وأنا اليوم لي نعاجي وعنزاتي ضمن قطيع الدير.

إذاً، إن شاء الله خير. أنت إنسان طيب ورجل ثقة. إن كنت تريد أن تتركنا فهي إرادتك.

أنا مهَّد.

وهو ينطق عبارته تهاطلت من جديد على ذهني، كما زخة برد، كل أخبار الموت. فالزيارة التي قام بها إخوان الجبل للأخ لوقا لم يكن مر عليها وقت طويل. وكان الأخ لوقا نفسه، في الاجتماع الذي أعقبها، قلل من شأنها واعتبرها تدخل ضمن علاقات الجيرة. وطماننا على أننا نحظى من إخوان الجبل أنفسهم بمبدأ «الأمان». فذكرت له أنه مبدأ سرى لوقت بروتوكولا بين الأمير عبد القادر وبين الجنرال لاموريسيير. فلم يعلق.

فقد حرك مرزوق جسمه في مكانه وكأنه ملتصق بالأرض تحت قدميه ناظرا إلي يستعجل ردي.

فقلت.

لن نقف في طريق ما يؤمن لك سلامتك الجسدية.

فهز رأسه كاسرا نظره، قائلا.

سيأتي والدي لأخذ ما يعود إلي من القطيع.

اطمئن. سيكون له ذلك.

فتمتم كلمة شكرا. وتولى عني. ثم توقف غير بعيد. ومن دون أن يلتفت، نطق.

أنت، يا أب برينو، إنسان ورع.

فرميت بلا ثقة من خلفه، وهو يغادرني مهرولاً.

إلى اللقاء.

الأخ سيلستان. قتل الغير كأنما قتل الإله

على مدى صفحات من دفتر يوميات الأخ سيلستان الحميمة، راودني ريب في أنه كان يتحاشى الإشارة إليّ هنا وهناك وهو يستعيد تذكارات من أيام الحرب، بينما أنا لا أذكر أنه حدث بيننا شأن لأي سبب كان، وتجنب أن يأتي على بعض ما كنت وإياه نتقاسمه، هنا في الدير، من أحاديث عن الوجود والموت والحياة والخوف وعمّا عاشه خلال حرب التحرير في هذا البلد ومن انشغالات بواقع سيده الأطلس التي غدت في رأيه تزداد كل يوم عزلة؛ وتلك حقيقة.

وفي ذلك كله، كان الأخ سيلستان يكاد لا يسيطر على قلقه؛ فإني خشيت أن يودي به الأمر إلى اكتئاب أو أن يفتنه عن هم من حوله ويحرفه عن الطريق إلى الإله. غير أنني سريعا ما تداركت ارتياحي بشأن موقفه مني. ورحت أعيد ما كنت قرأته على عجل لأنني وجدت نفسي تنازلت في لحظة ضعف للغيرة أن تدغدغ عواطفني.

إني أعترف لأخي سيلستان. كأني أحسبه يُنصت لي. كأني أسمعُه يقول من هناك حيث هو في سموات أبينا.

والحال، فمثل الراهبين الأخوين كريستيان وبرينو، جئت إلى هذه الدنيا في العشرية الثالثة من هذا القرن العشرين. فكان قدرنا أن نُجند لأداء الخدمة العسكرية في هذا البلد. هكذا، كلنا.

وفي هذا البلد، وليس في غيره كالمغرب أو تونس أو إحدى المستعمرات الأخرى، قلت للأخ برينو ذات مرة، هنا في مكتبة دير سيده الأطلس، ونحن نتجاذب أطرافا من ذكريات أيام تجنيدنا، بعد أن كنت عدت من مستشفى مدينة المديّة الذي دخلته إثر وعكة قلبية أمت بي.

كنا مبرمجين ضمن الوقود البشري المعد لحرب لم تكن حربنا في هذا البلد.

لماذا نحن؟ إني لا أجد إجابة.

ولا أنا، قلت له.

ثم قمنا لنخرج إلى شمس هذا الربيع الدافئة جدا على غير العادة هنا في تبيجيرين.

فإنه لم يكن مستبعدا أن لا أقتل خلال حرب الجزائر في عامها الخامس؛ لاسيما أثناء آخر اشتباك مسلح حيث كان يمكن أن أقتل غيري ليس دفاعا عن النفس أو عن شرف، لأن هذا الغير لم يأت إلى بلدي معاديا كما جئت أنا إلى بلده هذا، ولكن لأنني كنت مجبرا على ذلك بصفتي عسكريا جندا لأن يقتل.

وأنا أسترجع الحاليين اللتين نجوت من الوقوع فيهما، إما قاتلا وإما مقتولا، لأن قدرتي شاء لي ذلك، فكرت لو أنني لم أولد أصلا ولم يعرف أبي أمي ولم يتزوجا ولم ينجباني وليت الرب أخرني إلى أجل مسمى أو قدمني في زمن غير زمني هذا حتى لا أعيش الألم والحزن والخوف والعوز والمرض وقلة الحيلة وأن لا أشقى أبحث عن وجه أبي لألمسه بأصابعي وأشم رائحة جسده وأسمع صوته، الذي كان سيبقى هو من ألد ذكرياتي، وأشد على يده وقد صرت رجلا مثله. فإن صورته التي علقته فوق حافة سرير نومي، هنالك في بيتنا، كانت باردة لا حياة فيها وخرساء لا تقول لي شيئا عنه إلا ما روته لي أمي باحتشام، إني أقول بخجل، عن إصابته بمرض السل الذي عصف به وأنا في الأسبوع السادس من ميلادي، ففصلوني عنها، خشية أن تصيبني عدوى المرض، ووضعوني عند مربية كفلتني فلم أعلم إلى اليوم كم وقتا بقيته بعيدا عن بيتنا قبل أن تسترجعني أمي.

لا أنسى بارقة البشاشة التي أزهرت على وجهها، مجلية عنه غلالة التعب والمرض إلى حين، يوم أخبرتها أنني بصدد كتابة يومياتي إثر مغادرتي المدرسة العمومية والتحاقي

بالتعليم الكهنوتي. فقد زفرت زفرة حرى وأخذت بإحدى يديها يدي وأطبقت عليها
بالأخرى.

صغيري الذي يكبر. أنت تسعدني!

أمي، أحب أن تزوي لي أشياء عن أبي تُذهب عني قليلا من قلق بحثي عنه في صور
الرجال الذين أعرفهم أو أصادفهم حتى لا أظل أتمثل بعضهم إياه.

فهزّت يدي بين يديها متفرسة إياي، على وشك أن تسألني عنه وكأنها تراني كنت معه قبل
أن يرحل في العدم.

كان سيحبك. إنه أب طيب.

أشعر بأن هناك شيئا ناقصا في حياتي لا تعوضه عنه صورة أو قصة.

فطمأنتني.

الرب كريم. وسيجعل منك خلفاً.

ثم فكّت عني وقامت إلى المطبخ من حيث نادتني أن الغداء جاهز. ولم تحدثني بعدها يوما
عن أبي. فربما لذلك رحت، تحت وقع شعوري باليأس من معرفة أبي، أعوض لديها
خسارتي فيه. ولعل ذلك ما كان ربطني إليها ربطا واثقا وكأن حبلها السّري لم يقطع بيننا
أبدا! فإني لم أفتح عيني على فقد الأب فحسب ولكن أيضا على حياة الشقاء العائلي التي
كنت سأعيشها منذ طفولتي فقربني ذلك من غيري من المعوزين والمهمشين في بيئتي
الاجتماعية ووسطي البشري.

لم أدخل الجامعة لأني لم أنه دراستي. ولم يبق عالقا بذاكرتي، من أعوام شبابي، أكثر من
غيره مما عشته في حيي الفقير، الذي كان مرتعا للانحراف والإدمان على الكحول وبيع
اللذة الجنسية حتى عند القاصرات أحيانا، سوى عامي خدمتي العسكرية؛ بالتحديد ثمانية

عشر شهرا قضيتها هنا في هذا البلد مجتدا ضمن الجيش. فإني نزلت أول مرة في ميناء وهران قادما من مرسيليا في بزتي العسكرية حاملا سلاحي، وقد دخلت الحرب هنا عامها الرابع. ووصلت برا في القطار، بعد خمس ساعات مرهقة، إلى مدينة سعيدة فالتحقت بثكنة فوج المشاة الثامن التي لا تبعد عن المحطة سوى بضعة أمتار.

قرّ في ذهني، خلال سفري، أن أجد سعيدة مدينةً عربية؛ غير أنني إذ قمت بجولات في شوارعها أيام الأحاد فدخلت مقاهيها وحاناتها، ولم أشرب كحولا، كما دخلت قاعتي سينماها وحديقتها العمومية، ووقفت في ساحتها فتأملت نُصب تخليد وصول الجيش الفرنسي إليها في النصف الثاني من القرن الماضي، وحضرت قداسات في كنيستها، وزرت بيعتها الوحيدة ومسجدها الوحيد، ومررت بمدارسها الابتدائية ودار بلديتها، فشغفتني بنايتها ذات الحجر المنحوت والسقف الأردوازي، وحضرت مرة بمحكمتها في إحدى عطلي الأسبوعية جلسة حُكم فيها على أحد الأهالي بمصادرة أرضه للمصلحة العمومية فبكى بلوعة، وشيئت رفاقا قُتلوا في الحرب إلى مقبرتها المسيحية، الثالثة بعد المقبرتين الإسلامية واليهودية، وعمت في مسبحها البلدي وفي الآخر المخصص للفيف الأجنبي بحوض أوسع وعمق أكبر، اكتشفت أن عمارتها أوروبية لا يخالطها نموذج موريسكي عدا المسجد، وأن أغلبية ساكنتها من الأقدام السوداء والمعمرين، وأن من حولها أحياء فقيرة يسكنها العرب أعطتني عنهم الصورة الجوية التي عاينتها أن المدينة لفظتهم لفظا إلى خارج محيطها.

وعن تاريخها في المنطقة، التي تسمى اليعقوبية، كنت طالعت مرة في مقالة نشرت في جريدتها «صدي سعيدة» لضابط سابق أنه كانت هناك سعيدة قديمة، اتخذها الأمير عبد القادر ملجأ عند انسحابه التكتيكي من الشمال وأنشأ فيها مصنعا للبارود، أسست على أنقاضها المدينة الحالية بمرسوم من نابليون الثالث في العام الثاني والثلاثين للاحتلال؛ لأهمية مراعيها السهبية وخصوبة أراضيها الزراعية وجودة مياهها وامتداد جهتها الجنوبية خزاناً طبيعياً مفتوحاً على السماء لحقول الحلفا الشاسعة - المادة الأولية لصناعة الورق. وأخيرا لكونها بوابة الصحراء.

فلم تكن سوى شهور مرت على وجودي فيها وسط هدوء هش، مؤقت وخادع حتى ها نار الحرب تمتد إلى جبالها وغاباتها المحيطة وأريافها البعيدة وفي أحيائها ذاتها، بفعل العمليات الفدائية، فوجدتني في شتاء نهاية عامها الخامس ملتحما في اشتباك مسلح في المكان المسمى المزجة ضمن فرقتي التي خرجت في رتل للاستطلاع في الطريق نحو مدينة سيدي بلعباس، غربا.

لكثافة النيران، لم أكن أعرف إن أنا أصيب أحدا في الجهة المقابلة. كنت أرمي من سلاحي كحاطب ليل؛ ليس ارتباكا، فشياء من ذلك أصابني في البداية بفعل المفاجأة، ولكن لشيء مثل الخوف من القتل. ففي أعماقي كنت أبغي أن لا أقتل غيري. كان الاشتباك عنيفا وشديدا ومتقاطع الطلق أسفر عنه قتلى كثيرون في صفوفنا. فقد وقفت على خمسة على الأقل ممن كنت أعرفهم من المجندين مثلي. المتمرسون في القتال من البقية، لاسيما الناجون من «ديان بيان فو» الفيتنامية الذين التحقوا بفيالق الجيش هنا في البلد بعد اشتعال الحرب، كانوا قلة. وكان العدد الآخر من القتلى مساعدين من أهالي البلد الذين يسمون «الحركي»، لأنهم كانوا في بداية الاشتباك هم الذين دُفعوا دفعا إلى الخط الأمامي.

بيني وبين نفسي كنت أشفق على أولئك الحركي، لأنهم كانوا بإرادتهم يخوضون حربا ليست حربهم. وكانوا يموتون وهم غير مقتنعين بموتهم من أجل قضية ما. فقد اقترب أحدهم مني يوما في ساحة الثكنة عقب نهاية تفقدي لفرقتي، وقد اطمأن إلي، هكذا تصورت، إذ عرف مما أشيع عني أنني لا أشرب خمرا ولا أرتاد الماخور وأذهب إلى قداس الأحد في كنيسة المدينة وأقرأ في الكتاب المقدس.

أنت لا تنقصك سوى الشهادة لتدخل الجنة. أما أنا فبالشهادة سيكون مأواي جهنم.

فسألته من غير أن أعلق على ما ينقصني حسب رأيه.

لماذا؟

لأنني أقاتل في صفوف الكفار.

ما الذي يجبرك؟

الفقر. عندي زوجة وأولاد صغار وأب وأم، بلا عمل كلهم.

ستنتهي هذه الحرب ويعم السلام وتتحقق العدالة.

هل ستأخذني معك أنا وزوجتي وأولادي يوم تنتهي هذه الحرب؟

كذلك فاجأني بما لم أكن توقعته يوما من أحدهم.

إلى أين آخذك؟

فرنسا.

هنا فرنسا أيضا.

لا، يا حضرة الضابط. فرنسا وراء البحر. سترحلون جميعا. إن هي إلا شهور وينتهي كل شيء.

ما المانع أن تبقى هنا بعد نهاية الحرب؟

لن أضمن حياتي.

فقلت أطمئنه من غير ثقة بنفسي لأنني كنت لا أرى طريقا أمامي تفتح لمثله.

إن بقينا أنا وأنت في عداد الأحياء فسيكون لنا حديث آخر.

فأدى لي التحية وانصرف.

خلال التمشيط، في منطقة المزجة، الذي أعقب الاشتباك القاتل، كنا ألقينا القبض على ضابط جريح، في صفوف المتمردين الفلّاجة، كما تصفهم الصحافة، وجدناه مختبئاً في كازمة ومعه سلاحه وأدوية ومعدات طبية، وبرفقته ثلاثة من رفاقه كلهم جنود بسطاء ليسوا ذوي رتب، كما فهمت من قائد العملية. لم أسأله عنهم لما لم أُرهم أركبوا مع الضابط الجريح لنقله إلى مستشفى المدينة. فقد تخيلت مصيرهم. كان ذلك أمراً عادياً بالنسبة إلى قائدٍ عملٍ تحت إمرة العقيد بيجار في المنطقة.

لم يكن الضابط الجريح كشف خلال التحقيق معه عن اسمه الحقيقي وإلا ما كان أصر معي خلال وقوفي على سريره في المستشفى.

نعم. أنا بوعتروس أحمد. وليس لي اسم غيره.

لو كنت مكانك، قلت في نفسي، وكنت أملك شجاعتك واستعدادك للموت لتصرفت مثلك.

إنني لا أدري كيف خالجنى شيء لا هو بالعطف ولا بالشفقة على أسير حرب جريح، من الفروسية أن يعامل معاملة الرجال؛ لعله كان هذا الشعور بأني صرت، في موقف مماثل، أراني إياه، وكلانا إنسان من نسل لآدم وحواء وخلق للإله وصورة له؛ وذلك ما أحدث في كياني زلزالاً أن أقدم على قتل نفس مثل نفسي. بل أحسست رأسي سينفجر لفكرة أن أقتل الإله بقتل غيري من البشر.

كنت عملت، ما وسعتني مسؤولية ضميري، على التدخل غير مرة من أجل أن يتلقى الضابط الجريح العلاج المناسب لإصابته في عظم الترقوة والساق. وأن أحرص لدى المكلف بالتحقيق.

حضرتك، ستنتهي يوماً هذه الحرب. وسيكون من الحماقة تعريض الأسير لنهاية مأسوية مهما يكن تصميمه على الإنكار فتلاحقنا تبعات ذلك ما حيينا.

لا أريد سوى أن تفصر أيام هذه الحرب القذرة.

ليس بالأساليب المتبعة حتى الآن.

إنهم يقتلوننا.

لأننا كنا نحن من بدأنا بقتلهم يوم غزونا بلدهم.

سأصلي. وربما توجهت غدا إلى غرفة الاعتراف بكنيسة المدينة. فإني لم أفعل منذ خمس سنين.

كان ضابط التحقيق يعلم مساري فوثق بي وكان هو نفسه من عائلة مسيحية ملتزمة.

فقد مرت أعوام قبل أن أعرف من ذلك الأسير، يوم عدت إلى الجزائر وهي مستقلة، أن اسمه الحقيقي، حسب هويته الجديدة، هو أحمد حنوز. كان لقاؤنا مفاجأة عظيمة غمرتني فرحاً هنا في تينجيري بدير سيدة الأطلس، ليس لأنه كُتبت له النجاة بسببي، ولكن لإحساسي أن الإله أكرمني بهدية من خلقه رمزا للمحبة الإنسانية. كان سي أحمد، كما صرت أناديه خلال الحديث الذي جمعنا، هو الذي بحث عني بواسطة ابنه الذي كان يزاول دراسته في فرنسا فعرف كيف يصل إلى معلومات تخصني ومنها تتبع مساري إلى أن حدد مكاني فأخبره به. هكذا أسرَّ إلي سي أحمد، مبتهجاً. كان ذلك قبل ثلاثة أعوام - إننا اليوم في عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين محاصرون في تينجيري وسط هذه الحرب الأهلية اللعينة.

سي أحمد كان هو الذي سابق إلى مديده إلي بحرارة، بما في محياه من بشاشة وبما في فؤاده من صدق. وتلك أمارات لا يخدعني إحساسي بها. كان على قَدَّ عامر وهيئة مهيبة. وماذا لو لم أكن لابسا ثوب الراهب، وعلى وجهي سيما الزهد والقتر، إلى أين كنا سنتوجه وماذا نفعل وأي حديث نتبادله.

لا أخفي أنني غببت سي أحمد للحظة ثم تداركت في داخلي أن حياتي رُهنت للرب. فإني وجدت عينيه لم تفقدا كثيرا من توتر حركتيهما الفطنتين المستكشفتين اللتين استعادتا

نظرته إلي واقفا عليه جريحا في المخبأ ويده قريبة من رشاشه، من نوع ما ط من صنع فرنسي، بجانب ساقه اليمنى المصابة. كان يمكنه أن يستعمله، كذلك فكرت، لما دخلنا عليه أنا وعسكريان آخرا ن بعد أن كان أحد جنوده خرج من الكازمة رافعا خرقة بيضاء. وأنا أطأطي لأخذ السلاح، وإصبعي على زناد رشاشي من النوع نفسه، لم يحرك نحوي ساكنا - في المستشفى كنت سأعرف منه أنه غنم الرشاش خلال معركة سابقة. نزع الملقم فوجدته فارغا من الذخيرة وكذلك كانت بقية أسلحة الجنود الثلاثة التي أشرت للعسكريين بحملها، في حين هو يتابع حركاتي بتساؤل في عينيه عما أفعله به، من غير أن يبدي أي فزع أو خوف أو يبدر منه توجع أو توسل. كان على ثقة مدهشة. هل لأنه استشعر مني أمانا تفرسه على ملامحي أم كان قرأ في قلبه آية واستعد للشهادة أم كان يشهد وجه الإله أم كان يرى نفسه يمشي نحو حوربته البكر في درب من دروب الجنة بين نهري خمر وعسل. لا شيء يفسر ما وقع بيني وبين الضابط الأسير غير هذا الذي يشبه تجاذبا روحيا بيننا، وكأن الواحد منا كان يعرف الآخر من قبل وها نحن نلتقي بعد غياب. فبمجرد أن وضعت حزام ساحي على كتفي تبادلت أعيننا نظرة سلام وكأننا لم نكن قبل لحظات أعداء متقاتلين.

لا أجد، وأنا أبادل سي أحمد الشد على اليد، أنه خالجي الارتياب في بحثه عني. وتساءلت في داخلي عن مجيئه إلى الدير. كان الحارس أحمد لمين قد ولى عنا من غير أن ينطق كلمة. فهو الذي جاء يخبرني في البستان أن هناك من يريد مقابلتي. فسألته إن كان من إخوان الجبل فنفي بحركة من رأسه.

يظهر أنه يعرفك.

هل أعلن عن اسمه؟

قال فحسب قل للراهب سيلستان أنا شخص له به معرفة قديمة.

أين هو؟

في الانتظار خلف الباب.

أدخله.

كنت في زيي الكهنوتي لابسا تونية بيضاء متمنطقا بمنطقة من الجلد. وكان سي أحمد في بدلة من ثلاث قطع وربطة عنق، حليق الوجه، منشرح الملامح، ولا يحمل شيئاً في يديه غير خاتم زواج في بئصره الأيسر.

السيد سيليبستان؟

أجل. أنا هو.

هل تذكرني؟

جبهتك وعيناك وملامحك تكاد تكون هي هي برغم بعد المدة الزمنية الآن. بل هي أكثر إشراقاً مما كانت عليه داخل الكازمة وأنت تنزف.

عندئذ، شد على يدي في يده وهز بحرارة فشممت منه آثار عطر محتشم.

أنا أحمد حنوز.

آه! كنت أحس أن أحمد بوعتروس هو اسمك الحركي. وكنت على يقين من أنك ستموت دونه. كم تمنيت أن التقيك كما يحدث الآن لأقول لك هذا!

قال مبتهجاً في وجهي.

وأنا كنت أبحث في أترك منذ واحد وثلاثين عاماً وبالتحديد منذ أن خرجت من سجن وهران قبل ثلاثة أشهر من الاستقلال لأعبر لك عن إكباري فيك روح إنسانيتك برغم ما كانت تفرضه الحرب من قسوة.

ثم فك يده عن يدي وتراجع عني خطوة.

كنت لما عدت إلى مدينة سعيدة سألت عنك في ثكنة الفوج الثامن للمشاة أياما قبل الجلاء عنها فأخبرت أنك سُرّحت وعدت إلى فرنسا.

علمت ذلك من أحد المجندين من مدارس الرهبان بقي في المدينة ليتولى مسؤولية أبرشيته كان يراسلني.

بعد عامين من ذلك زرت فرنسا ثلاث مرات بحثا عنك.

أحيانا لا ندرك ما ترومه لنا أقدارنا إذ توجهنا إلى غير وجهة إرادتنا.

أردت فقط أن أشد على يدك كما الآن وأعبر لك عن امتناني على إنقاذك حياتي وأعترف لك أنني مدين لك بها.

فارتعشت أحس حرارة سرت عبر جلدي كله من رأسي إلى قدمي ثم التمت وسكنت خدي. فخفض سي أحمد بصره عني حتى لا يثير مزيدا من ارتباكي، الذي تحول إلى سعادة حقيقية جعلتني، في تلك اللحظة، أشعر بأن الرب باركني. ثم رفع إلي عينيه ببريق نجماتٍ غبطةٍ فيهما.

أعرف أنه ليس للحياة ثمن لأنها هبة من ربنا. ولكن اسمح لي أن أسألك كيف أرد لك دينا عليّ كدين الحياة؟

ادع لي ربك.

كان ذلك هو ما صدر عن قلبي إلى لساني تجاه إنسان مثل سي أحمد ذي نفس طيبة.

فقال:

ما دام ربي وربك واحدا فإنه سيكون مجيبا لي ولك لأننا ندعوه من قلوبنا.

سأصلي من أجلك.

ليتقبل الله منك، ردّ.

ثم رجاني أن أرافقه في بضع خطوات إلى خارج الدير فسرنا جنبا إلى جنب، في حين كان إخوان من الرهبان يتابعوننا تحت شمس نهايات الشتاء في الساحة. وقد تجاوزت بخطوة الباب، الذي فتحه أحمد لمين، بينما بقيت أنا دونه، التفت ناظرا إلي بما في ملامحه الجميلة من صفاء وأشار وراءه بيده إشارة خفيفة إلى سيارة شحن كانت متوقفة بالخلف مكشوفة الستار وأمامها سيارة سياحية.

أرجو أن تُقبل هذه الهدية مني للدير. أما أنت فجئت أهديك محبة وسلاما.

صَفَدتني كلماته الصافية صفاء ماء عين الدير الرقراق. كان على شفته العليا شارب كث مقلم هو الذي يزيد ملامحه ثباتا.

لم أعلق، لأنني لم أجد عبارة على قدر المقام. فما الذي كان يمكن لي أن أقوله. كنت أدرك أن صمتي وقع في قلب هذا الرجل النبيل السخي. ثم ها هو تراجع نحوي فشد على يدي.

اعتبر أن لك في هذا البلد صديقا محبا في الله خالقنا.

رعتك العناية.

إلى اللقاء، قال.

وتولى عني فتابعته على حدّ دمعة في العين إلى أن ركب سيارته وغادر.

وأنا أعود، أشرت على أحمد لمين أن يفتح مصراعي الباب من حيث دخلت سيارة الشحن التي أفرغ الإخوان محتوياتها من طحين وزيت وقهوة وسكر وصابون وملح وبطانيات ووسائل، بينما أنا في شبه غيبة عنهم أناجي إلهي.

بركاتك أيها الرب. لك المجد.

إذ أسترجع ذلك، كما الآن، أجد أنه من الغرابة أن كان يوم خروج سي أحمد من سجنه في مدينة وهران، الذي حُول إليه من مدينة سعيدة بعد أن برأ من جروحه على تعهد وحرص مني على أن لا يتعرض للموت تحت التعذيب كما وعدني ضابط التحقيق، هو اليوم نفسه الذي دخلت فيه معهد أخوة يسوع كاريتاس. وثمة كنت قلت لربي أنا فقير بلا قوة ولا صحة.

فإني كنت سُرحت من الجيش مريضا ومتعبا ومؤرقا مما عشته من قذارات الحرب قتلا وحقدا وانتقاما وتعذيبا واغتصابا. وبرغم ذلك بقيت لي رغبة وحماسة في المجيء إلى تينجيرين إذ تم لي ذلك، بعد خمس وعشرين سنة، فوطئت قدماي أرض هذا البلد، مرة أخرى، نزولا من الطائرة في المطار الدولي، وليس من الباخرة، في ثيابي المدنية، وليس العسكرية، أحمل حقيبة فيها بعض ملابسني وصورة أبي والكتاب المقدس، الذي أهدتني إياه أمي ليلة سفري، وليس سلاحا ناريا.

وقد ركبت الحافلة نحو مدينة المديّة ومنها إلى تينجيرين، حدثني قلبي بأني سأقضي بقية حياتي في هذا البلد وأوارى ترابه. فدعوت ربي، في صلاتي الأولى لما وصلت سيادة الأطلس، أن يمنحني شيئا من الصحة الجسدية والعافية العقلية حتى أنذر له نفسي. ففي ليلتي الأولى، إثر أول عشاء لي مع إخوان الدير وسماع المرتل ثم الترانيم، أحسست في عمق الصمت والظلمة في سريري أنه سيكون لي في الغد ميلاد جديد. وفي منامي رأيتني طفلا، كما هو المسيح في أحضان العذراء مريم، لم أتعلم النطق بعد. وعقب صلاة الصباح هتف لي هاتف من داخلي.

أنت، هنا، ستتعلم من جديد كل شيء. فتأبر على الصلاة والعمل.

واليوم، وأنا في حال صحية متعبة، أنتظر من الأخ أميدي أن يلاحظ ما أمرّ به من معاناة جسدية ونفسية في دير سيده الأطلس، الذي أمست جبال تمزّجيدة وبوگرّة تحاصره بالخوف وطريق مدينة المديّة لا يأتيه منها إلا العوز. فمئذ أن زارنا إخوان الجبل، آخر مرة، تغير شيء ما في داخل الأخ أميدي وفي ذهنه ولغته. في آخر حديث شخصي بيني وبينه كان قال لي في لغة غامضة لم أعهد لها منه: ليت الموت لم يكن أيضا على يد البشر مثلنا. ليت الرب وحده يُميت كما يحيي. وليته قطع يد قابيل قبل أن يقتل أخاه حتى لا تنزع نزعة القتل في دم بني آدم. وليته لم يؤجل الحساب. فالرب خلقنا على صورته. فلماذا ننكل بصورته. الحرب الأهلية الدائرة اليوم من حولنا أشد أنواع التنكيل بصورة الرب فينا. وهي تنطبع بالبشاعة والفضاعة حين تشعلها نار السياسة وتغذيها بوقود الدين.

هل علينا أن نخاف؟

فقد عبرت عما كنت أحسه. فصرف الأخ أميدي مرآه عني صوب الجبل، حيث كنا في سفحه نتفقد خلايا النحل المنصوبة غير بعيد عن الدير. وتنهد. ثم تولى إلي، هاشا بساق من نبات الكلخ المشتعل مبعدا عنا بدخان أسراب النحل المهاجمة اقتربنا من بيوتها التي كانت في هذا الوقت من بداية الربيع توشك على الامتلاء شهدا مؤذنة بحلول وقت قطافها قريبا.

ثم رد علي:

ما يجري اليوم من حولنا لا يطمئن.

وسألني إن كنت أشعر في أعماقي بأمان. فتذرّت في ذهني عشرات الصور التي كنت أتخيلها حين أوي إلى سرير نومي عن أخبار الموت، في الكمائن والاشتباكات وفي التفجيرات والحواجز المزيفة وفي المداهمات، التي كان أحمد لمين ينقل إليّ بعضها،

تقتيرا ورعبا؛ فنتهامس بها في الدير مخلفة في نفوسنا أثرا للشك في أماننا، برغم سعي كل منا إلى التمسك بغيره لنشعر أننا جسد واحد.

بيدَ أنني كنت من جانبي أدرك أن حالي النفسية تكاد تصير نشازا. ذلك، لأنني سألت ذاتي في لحظة من لحظات تأملي في واقعي خارج الدير إن كنت أجرؤ على النزول إلى مدينة المدينة في لباس الراهب، كما يمشي الإمام في سوقها. كنت أقول إنهم ليسوا أهلي. وهم على أرضهم ولهم دينهم. وعزيت روعي أخيرا بأني مجرد ضيف في أرض مضيافة. وتذكرت شأني خلال أعوامي هنالك في حيي الفقير الذي كنت أجوب شوارعه على دراجتي الهوائية فأقف عند هذه المجموعة المنحرفة أو أدق باب بيت عجوز بحاجة إلى مساعدة أو أحاور المسبوقين قضائيا أو أرغب الفتيات القاصرات في العفة حتى لا يقعن في مستنقع الرذيلة، وأنا فقير أكثر من الفقراء وأشد عوزا من المعوزين، وحيد لا صديق لي، أعيش رهبة باردة العواطف كجدران أذيرتها.

لأكسب قوت يومي، لأن الرب لم يكن لينزل علي منأ وسلوى ولا مائدة من السماء، فقد عملت حيثما وجدت عملا أكسب منه ما أتعيش به؛ وأنا في صحة هشة كنت عدت بها من حرب الجزائر القاسية التي برغمها قاومت أن لا أتهالك جسديا. على أن قلبي كان أنذرني غير مرة بأنه لن يتحمل طويلا أكثر مما تحمله خلال الحرب وما تلاها من مجاهدتي الإحباط عند المهمشين المنبوذين ومن يدمرهم الإدمان ويسحقهم الفقر وتخجلهم البطالة ويكره العوز النساء منهم على البغاء. وفي إنذار ثالث له، بعد أن التحقت بسيدة الأطلس، كاد قلبي يتوقف متخليا عني فلم يُعد إليه نبضه إلا بالكاد في مستشفى مصطفى باشا بمدينة الجزائر الذي نقلت إليه استعجالا لترجع إلي الحياة.

كنت أدرك أن قلبي إنما هو يصبر علي لوقت، يؤجلني فحسب، إلى سكتة أخرى قد لا أخرج منها حيا. ثم ها أنا في سيدة الأطلس مرة أخرى بما حملته لها من وهن القلب ومن التعب الجسدي. وها أنا، وذلك ما كاد يودي بي إلى انهيار عصبي، أبلغت إعفائي من أداء تراتيل

القداس. فصرت أبيت متأرقا وقد أصابني في ركبتي اليسرى التهاب النسيج الخلوي وفي اليمنى التهاب الوريدي. فكل شيء صار يتلاحق اليوم نحو نهاية لا أتخيل لها طبيعة.

ولكن يا له من نداء مبهج للروح كان تردد في أعماقي فتحرك به لساني. «انهض، واستعد للسير، وقم بأعمال الأب».

لا أذكر أنني أجبت الأخ أميدي، لأنه لم يكن أتاح لي الفرصة لذلك لما نظر، مرة أخرى، صوب غابة الجبل.

وقال بنبرة لا حرارة فيها.

من هناك قد ينزل علينا ما نخشاه.

ثم غرس في الأرض طرف ساق الكلخ المشتعل، قاطعا عني أن أنطق كلمات خوفي.

يا نفس! هل ستنتبه يوما ما هذه الحشرات المقدسة إلى أننا لم نصبح من هذه الدنيا.

لا أدري.

الأخ كريستوف. مغراج بالشعر والحب

عجبا، أخي أميدي، أن يكون زئبق عمري بلغ درجة السادسة والأربعين! البارحة وأنا أحاول الالتفات ورائي إلى ما قطعته من مسار حياتي كدت لا أصدق أنني كنت أطوي كل يوم صفحة من صفحات سجّلي مخطوطة بحبر خطاياي قبل أن أصل إلى سيدة الأطلس هنا في تينبيرين. يا لحياتنا كيف تمر وكأنها قبسات من حلم إذ نستفيق منه نكون بلغنا أوان مغادرتها!

كذلك كان الأخ كريستوف باح لي في آخر عيد ميلاد له في ذاك الخريف، من عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين، كنت هنأته به إذ عدته في غرفته أحمل له شرابا ساخنا من الزعتر ممزوجا بالعسل والليمون لإصابته بأنفلونزا موسمية ألزمته الفراش.

إلى ذلك اليوم، لم أكن أعلم عن كريستوف إلا قليلا من حياته الشخصية؛ فلا هو كان ميالا إلى التكلم عن نفسه اعترافا أو عرّضا خلال أحاديث بينه وبين إخوان الدير؛ ولا أنا انشغلت بمزيد من الفضول تجاهه. كان يجب، ويا لحزني عليه، أن يضع القدر بين يدي ما كان يخطه في دفتر يومياته الحميمة لأنقل بعضه، ها هنا، بدمعة في العين وقزصة في القلب.

كنت سابع طفل، يقول، من اثني عشر بنين وبنات، جاء إلى هذا العالم، بعد خمس سنين من إسدال الحرب العالمية الثانية الستار على مأساتها، لأب وأم خلفا ذلك العدد كله كأنما ليعوّضا من جانبهما، مثل كثير من العائلات التي نجت من الموت والتشريد والتحطم والإبادة، ما ذهبت به من النفوس تلك الحرب الجهنمية.

تساءلت مرة، وكان يوم أحد اجتمعت فيه العائلة بكاملها حول مائدة الغداء، كيف استطاعت أمي أن تحمل في بطنها كل هذا العدد فوضعت، على فترات، وأرضعته ورعته وسهرت على مرضه وحممته وألبسته وبدلت ثيابه وغسلتها وهيأته للمدرسة صباحا وأعدت له طعامه وحليبه وبقيت واقفة ثابتة واسعة الخاطر طيبة القلب لا تنام إلا إذا تفقدتنا فردا فردا وتلت معنا فردا فردا صلاتنا قبل نومنا، نحن الصغار!

وكيف لأب، بهذه الفحولة مثل حصانه الذي كان يرعاه في مزرعة إنتاج الخضار وتربية الخيول، هو مسيرها، لم يشفق على أمي، التي لم أرّتب في أنها كانت اشتكت يوما. فهي مؤمنة بأن الرب هو الذي أراد لها ذلك العدد إكراما لها. فسعادتها بنا جميعا كانت نابغة من فيض إيمان عميق ظل يعمر قلبها فيظهر لنا محياها على بشاشة لا تذوي، مثلما كان أبونا لا يضيع بنا فيوفر لنا الطعام واللباس وحطب التدفئة والفحم ومصاريف التعليم والدراسة ومتطلبات الحياة الأخرى.

فمنذ أن بدأت أعي أن هذه الحياة لا تدور عجلتها عبثا قدّرت أن ما يهبّ أبويّ، لاسيما أُمي، هذه الطاقة لتحمل عبئنا، هو سر ما. كان يجب أن تمر علي سنون قبل أن يأخذ الرب بيدي إلى بيته الأول، هنا في تيبجيرين، حيث بدأت ظلمة روعي يجليها هذا النور الذي كان يسكن قلب أُمي؛ إذ هو الذي، وليس شيء آخر غيره، كانت به تهدي في طريقها إلى قلوبنا فتكون قادرة على أن تتصرف مع كل منا بحسب مزاجه وشخصيته وتعرف كيف تهيبّ لنا ظروف الاطمئنان. فمن غير الإله يكون رمى شعاعا من نوره في قلبها؟

من غبطتي أن أذكر أني ما سببت يوما لأُمي أو لأبي أي صداع مع إخوتي وأخواتي في البيت أو مع غيري من أقراني في شارع الحي أو في المدرسة، ولا مع معلمتي. كنت سهل العشرة؛ هكذا رأته أُمي دائما. وكذلك قالت. وكنت الوحيد، من بين إخوتي وأخواتي، من كانت أُمي تنظر إلى وجهه، كلما جلست قبالتها، في لحظات تواجدي بالمطبخ أيام العطل لأساعدها في تقشير حبات البطاطا التي تعدها للغداء؛ فلا تنطق إلا لاما كلمة أو أخرى عن الجو في الخارج مثلا أو عن كمية الحطب المعدة للشتاء أو غيرها من أشياء لا تبدو ذات علاقة بما هو آني، وكأنها تفعل ذلك لتتخلص من حرج تركيزها إياي بهذا النهم الذي لا يخفى على ملامح أم تنتظر أن ترى مولودها.

كنت أتخيل إحساسها. وكنت أقول لها في نفسي إنني لا أزال كريستوف الذي لن تربه إلا صبيا، برغم هذا الشارب الذي لا تدرين، ولا أنا، كيف نبت من غير أن أزرعه. إذ حدثتها في إحدى تلك المرات التي كانت تجمعني بها على انفراد في المطبخ، عما رأته في حقول الكروم ومن آثار العوز بين سكان أحياء المدينة القديمة وعن الفقر الذي يحاصر المهاجرين الأفارقة والمغاربة، ردت بصوتها الواثق الهادئ، وهي تقشر حبة بصل دامعة العينين، بما لم أكن لأتلقاه يوما في جامعة: ماذا كان سيترتب عن الاحتلال وعن حربيين عالميتين أشعلتهما أطماع الإنسان الغاشم وأنانيته وخطرسته غير حياة الفقر والعوز والشعور بالظلم والانزلاق إلى مستنقع الكراهية!

وأنا في الثانوية، لطالما وجدت لأمي روحا في نفس أستاذة الفلسفة التي كانت، إضافة إلى جمالها الطبيعي إذ لم تدخل الفصل الدراسي يوما وعلى وجهها آثار زينة فاقعة، تأسرني بصوتها الرخيم وكأنه العسل وبلغتها الأدبية التي بها تبسّط لنا ما هو معقد وغامض وتجريدي في درسها فيستقر في القلب. فبين حين وآخر، كانت تفتح لنا أقواسا على ثورات التحرر الاجتماعي والأخلاقي التي تنشأ هنا أو هناك في مناطق من العالم. فكان ما يستأثر باهتمامي منها تلك التي يخوضها السود في أمريكا الشمالية من أجل الحرية والعدالة والمساواة. ومن ثمة أحببت الفلسفة حبي أستاذتي حبا غامضا يكون دفعني إلى وغي مايو ٦٨.

لعل ذلك ما قد يكون أثار في داخلي نزعة تحرري، إلى أجل مسمى، من رباطي الديني الذي ظل يشدني بعاطفة إلى أُمِّي أكثر من شدة إياي إلى عقيدة الكنيسة. فأُمِّي وأستاذتي ودرس الفلسفة وسوزان، التي أحببتها لروحها وجسدها، والفقر والعوز وفشل التغيير، عوامل وضعتها يد قدرتي معالم ابتلاء في طريقي إلى تَبْجِيرِينِ أرض الرب في هذا البلد العجيب فأصطدم بثقافة شعبه وتاريخه وديانته، في الحياة والموت وفي الفرح والحزن. إنني أعترف بأنه كان لا يمكن لبلد أُمِّي أن ينشئ علاقة تاريخية وثقافية ولغوية مع شعب هذا البلد بغير قوة السلاح. وإن ذلك ليحزني إذ أجدني لا أقدر على تحمل ثقل إرث الاحتلال ووطأة الظلم وتكلفة حرب سبعة أعوام ونصف العام. أما هذه الحرب الأهلية الجارية اليوم فيدمى منها قلبي وينزف لها روحي.

فإلى هذا البلد الزاخر بأسرار التاريخ، لم أكن حملت، من كل ما ملكته هناك في بلد أُمِّي، لأؤدي خدمتي المدنية، سوى بقايا أحلامي وطيشي وجمرة حب، لم يذو لهيبها في صدري، لسوزان الرومانسية جميلة الجسد والروح الحاملة، أكثر مني، بتخليص العالم من آفة الكذب ومن شرور صنّاع الحروب ووحشية ناهبي خيرات غيرهم وطغيان مصادري الحريات؛ سوزان الهادئة حتى في موتها إذ لم تتألم كثيرا في أحضاني للرصاصة التي فجرت قلبها وقد خرجت، من متاريس مايو ٦٨ وسط دخان قنابل لأكريموجان، أنا الطالب الذي كان سيلتحق بالسوريون مثل سوزان لدراسة القانون من أجل الدفاع عن حقوق

الإنسان، أحملها على ساعديّ متلاشياً الساقين والذراعين منفوشة الشعر نازفة الصدر فتقدمت بها نحو سد البوليس وصرخت، من وسط الصمت الذي خنق كل صوت من حولي، على بعد مترين من الوجوه الكالحة تحت الخوذ الغبراء والأأيادي المتصلبة على زنادات الأسلحة النارية.

صوّبوا نحو رأسي، نحو صدري، إلى القلب!

شهرًا من قبل، كان جيمس إرل راي أطلق رصاصة واحدة على القس مارتان كينغ أسكتت صوته الآتي من السماء وأظلمت طريق أتباعه نحو الحرية. أهي الرصاصة التي، إلى جانب رصاصة الشرطي المجهول الطائشة أو المصوبة إلى قلب سوزان، كانت ستغير مساري وهل هي التي كانت ستنتشلني، التي كانت ستنقذ روحي من الخطيئة المحتملة؟ ربما إحداهما أو هما معا.

في طريقي نحو المطار، إلى الجزائر، عرجت على قبر سوزان فوضعت إكليل أقحوان. وقرأت لها مقطع حب آخر.

سوزان

يا مزيمي

لو كنت تعرفين عطاء الله(3)!

أضعتُ سوزان ومعها فقدت أمني في أن أغير وحدي شيئًا من هذا العالم الذي كلُّ يوم يزيد وجهه بشاعةً هوسٌ تكديس الثروة، ولو بالحروب والدسائس، وسلب الفرد حرّيته وإجباره على التعيُّش مثل حيوان على فتات الأثرياء الجشعين وطُرق ذهنه طرّقا بالصوت والصورة والكلمة على مدار اليوم والليل لحشره أخيرا في دائرة القطيع، في عمى عن مآله إلى خراب نهائي ما لم تنتصر إرادة السلام والعدالة والحب.

من بين جميع الطرق، التي تفتح لك ثم توصل أو تظلم لسبب ما، تبقى طريق واحدة لا تغلق ولا تظلم أبدا هي طريقك إلى الرب. وتذكّر أنه لا يبقى لك سواه حين تقسو عليك الطبيعة ويظلمك البشر.

كذلك أوصتني أمي، بعد أن حضنتني بعناق عند باب الخروج من بيتنا هنالك في لواز إي شير، وقد حملت حقيبة سفري للالتحاق بخدمتي العسكرية ضمن السلك المدني، هنا في هذا البلد.

على وقع تلك الوصية، التي لها في ذاكرتي قدسية آية، خطوت خطواتي الأولى في حي حسين داي الشعبي، حيث عُينت مدرسا ضمن بعثة التعاون بين البلدين في مجال التعليم لأداء ثمانية عشر شهرا من الخدمة العسكرية في السلك المدني، فاختلطت بناسه ذوي الوجوه المنبسطة والمشرقة غالبا كشمس بلدهم وبحره، غير تلك التي كنت أشاهدها كالحبة في حقول الكروم هنالك وراء البحر. وشممت روائح مختلفة منبعثة من أجسادهم ومن الهواء الذي يتنفسونه ومن الأسواق اليومية والأسبوعية ومن محلات الأكل والشواء والمقاهي ووسائل النقل العمومية. والتقيت أطفاله في المدرسة فتعلمت منهم، وأنا معلمهم، أن الرب خلقنا على صورة الإنسان الواحدة، ولو تغير اللون واختلفت اللغة والثقافة والديانة؛ إذ لا شيء وجدته مختلفا فيهم عني لما كنت طفلا أو عن أختي، بالحواس الخمس نفسها وأقسام الجسم ذاتها؛ نأكل ونشرب جميعا بواسطة الفم ونقضي الحاجتين نفسيهما جميعا من المخرجين المعلومين ونمرض جميعا ونفرح ونحزن جميعا ولنا جميعا المجيء نفسه إلى هذه الدنيا من حيوان منوي وبويضة، من رجل وامرأة؛ ولنا جميعا النهاية نفسها: الموت.

سأعمل على أن تقضي معنا إقامة طيبة.

بتلك العبارة كانت قابلتني، في اليوم الأول من تنصبي، مديرة مدرسة حي حسين داي التي عملت تحت مسؤوليتها. كانت سيدة، على قدر درجة هيبتهما تجاه المعلمين الذين حفرت بينها وبينهم خندقا من الاحترام، ذات قلب كبير ونفس سخية ووجهة أيضا. ففي

نهاية الفصل الدراسي الأول المصادف عطلة الشتاء، كانت، إذ أجبته أنني سأقضي عطلتي في مدينة الجزائر لما سألتني عن ذلك في مكتبها، قالت لي: حدثت ابني عنك. إنه طالب في جامعة الجزائر. سيكون سعيدا باستضافتك في البيت خلال العطلة. أنا وأبوه سنسافر في رحلة إلى الصحراء.

كان في صوتها نبرة امرأة أخرى، ليست تلك التي تلبس قناعا من الهيبة داخل المدرسة. كان في داخلها نبل.

فقد وجدت كريم، ابنها، نسخة منها جمالا وهيئة أيضا. فهو الذي جعلني أكتشف حي القصة العتيق والأحياء الشعبية الأخرى في مدينة الجزائر. فتجول بي في باب الواد، هذا الحي الشهير بتاريخه الذي كانت تتعايش فيه أقوام مختلفة من الديانات الثلاث ومن اللادينيين ومن المقاومين. وأوقفني على آثار مصليات يهودية ومسيحية ومزارات لها، لا تزال بادية للعيان صامته مغلقة، وعلى مقابرها المتجاورة هي ومقابر المسلمين أحيانا. ودعاني في هذا الحي أو ذاك إلى شرب شاي بالنعناع أو قهوة محضرة على الطريقة التركية وعند وقت الغداء والعشاء إلى مأكولات تقليدية لم يكن يخطر على بالي أنها بتلك النكهة الفائقة واللذة الفريدة. ورافقني إلى كاتدرائيتي السيدة الإفريقية والقلب المقدس مثلما رافقته إلى مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي ومسجد كِتْشاوة. وزار بي حديقة التجارب في الحامة؛ هذه كانت مذهلة حقا بما تحتويه من نباتات نادرة في الضفة الجنوبية من البحر المتوسط. وأدخلني أشهر قاعات السينما. وكان لي معه حظ أن أحضر لأول مرة في حياتي عرض مسرحية بلغة عربية في المسرح الوطني. كان بجنبي يترجم لي بين حين وآخر ما كان يراه مهما في الحوار بين الممثلين. كان يدرك أنني كنت أستوعب موضوع المسرحية، عن حرب التحرير، من خلال حركات الممثلين وتعابيرهم ولباسهم ومن الديكور والموسيقى.

ففي كل خطوة خطوتها مع كريم، ولا سيما خلال كل حديث بيننا في البيت الذي كنا لا نعود إليه إلا ليلا، كنت أشعر أنني مثله واحد من شعب هذا البلد وأنه لا شيء، برغم اختلاف

ديانتينا، يحول دون أن نكون على مودة وصداقة.

كان ولع كريم بالشعر هو ما ربط بيننا أكثر من أي شيء آخر. فهو يقرأ بودلير أو پربقير كما يقرأ إيليوٲ أو ويثمان في لغتيهما الأصليتين. وكان يترجم لي المتنبي وأبا نواس، اللذين كانا بالنسبة إلي اكتشافا عظيما في الشعر العربي.

عليّ أن أعترف أنني ارتبكت لما طلب مني مرة، وكانت الأخيرة، أن أقرأ عليه شعرا من اختياري، فاعلا ذلك بالباح رائق، ونحن في تجاذب حديث عن ميلنا، معا، إلى هذا الفن. فقلت يحضرني في اللحظة مقطع لسانت جون دو لاكروا.

أينَ تختبئُ يا عشقي الغالي

يا مَنْ تركتني في هذا الحداد

مثل أيل، سيطارد،

مجروحاً وهربت:

خرجتُ خلفك أضرخ،

لكّك كُنْت دائماً ستهرب.

فسألني بنهم عيني طفل أمام لغز يبغي حله إن كنت كتبت الشعر يوما. فلم أجب.

حينها، قال:

كنت أحس ذلك في لغتك وفي مشاعرك وتعابيرك تجاه ما كنا نراه ونقف عليه أو نأكله معا. أحب أن أسمع منك شيئا كتبتنه أنت.

فنطقت هذا على خجل.

أُحذِّركُ

اسمِعْ جيِدا

أنا مَوْجُودٌ

وانظُرْ هُنَاكَ، أَجَلُ هُنَاكَ بِالضَّبْطِ

حَيْثُ أَنْزَفُ

لَكَ

فالمس من أنت.

في منتصف فترة العطلة، كان كريم أخبرني أنه سيستقبل خطيبته التي كانت ستجيء من مدينة وهران الساحلية في الغرب الجزائري. وطمأنني على أنهما سيكونان سعيدين جدا بوجودي معهما إلى نهاية العطلة. فاعتذرت. وكانت هديتي إلى كريم غيثارة. لا أدري لم أختار غيرها، مثل الكتب أو المجسمات أو اللوحات أو غيرها مما يهدى إلى صديق عزيز.

غداً ذلك، وقد حملتني قدمي، كما بقدر، إلى أبرشية حي حسين داي، بينما حنيتني إلى أمي هو الذي في الواقع كنت أحسه يدفعني وأنا أتخيلني في يدها تقودني إلى قداس الأحد، طرقت الباب ففتح لي من كان سيسلك بي طريقني إلى سيدة الأطلس، مرحباً.

كريستوف، ابننا. أهلاً بك.

كان هو الأب كارمونا. كنت سأعرف منه أنه سأل عني حارس العمارة التي كنت أسكن إحدى شققها غير بعيد عن المدرسة، من دون أن يصادف وجودي فيها. وأنه كان سيتصل بي بعد أن تلقى رسالة من أمي تدعوه فيها إلى أن يستقضي عن أخباري. والحقيقة أن أمي كانت، بصفتها إحدى قريباته، طلبت منه أن يقربني مرة أخرى من الكنيسة. يجوز لي أن

أقول إنه كان أحد أخوالي. كانت دعوته إياي إلى مرافقته إلى تيبجيرين، خلال عطلة الربيع، لحضور حفل عيد الفصح في دير سيدة الأطلس، هي اللحظة الفاصلة بين حياتي المدنية المحفوفة بأشواك الشك وحياتي التي كنت سأنتقل إليها لأعيشها في حضرة الرب. وثمة أعلنت.

إني أحبك لتغار علي كما لو كنت الوحيد في كونك.

في ذلك الربيع، اكتشفت أن لمدينة المديّة سر القداسة عند أهلها. فمنها الصعود إلى سيدة الأطلس في تيبجيرين حيث يتجاوز رهبان ديرها مع المسلمين متعايشين متعاونين في زراعة أرضها وجني غلال بستانها. وأحسست أن عين الإله ترعاهم إذ لا شيء يكدر صفو تقاربهم فأنسر روعي لذلك الوهج الذي تبتهج له الأشجار والنباتات والحشرات وجميع الحيوانات في المحيط كله.

لا أخفي أنني أشعر بمزيج من الغبطة ومن الحنين إذ أذكر أنه يوم كتبت لي أن ألتحق أخيرا بسيدة الأطلس فأصبح أحد رهبان ديرها بعد أن كنت وجهت رسالة رغبة في ذلك إلى رئيس كنيسة الجزائر، لم أكن حملت في طريقي إليها سوى كيثارتي على كتفي وحقيبة سفر صغيرة فيها ألبوم صوري - لاحقا كنت سأعرف أن إخوانا لي سبقوني إلى تيبجيرين كانوا من قبل حملوا السلاح والبزة وحقيبة الظهر العسكرية في هذا البلد. ولا حملت إلا أشعارا مخبوءة في ذاكرتي ومشاعر حب ينبض بها قلبي لأعرج بها إلى ملكوت الرب، في هذا البلد العجيب؛ وبي رعشة طفل في اليدين اللتين كنت سأخضبهما، كما تفعل بالحناء نساؤه وأطفاله في مواسم أعيادهم الدينية وعرسانهم في الأعراس، بتربة بستانه أشمها حين أخدمها غارسا بذورها ناقلا فسائلها متعهدا إياها قاطفا وردها جانبا ثمارها.

تربة تيبجيرين المقدسة، حاضنة دير سيدة الأطلس، حيث أتعبد، هي التي منحني صداقة جيراني المسلمين فسعد روعي لشعوري بأني قريب منهم أقيم في أرضهم، أرض الإله وبيته المتسع لخلقهم جميعا، وأسمع أذان مسجدهم غير بعيد حيث يتعبدون.

وهي التي، في فضائها الذي تحسه يسع كل شيء ويوسع للصمت والسكون أن تسمع دقات قلبك والأصوات التي نسيتهما وتبصر عبور الوجوه التي ألفتها تلك التي أحببتها مثل نجومات راقصة وتلك الأخرى التي آلمتك يوماً تهوي شهباً مصعوقة هنالك بعيداً في الثقب الأسود، جعلتني لا أشكُّ في أن أمي لم تكن مزيماً أخرى لأكون أنا مثل مسيح.

ثم ها هاتف همس لي من أعماقي أنه، بالرغم من نار هذه الحرب الأهلية التي تأكل هذا البلد منذ أربع سنين الآن وبرغم غمامتها التي تظلل روحي، لا شيء يزيحني عن هذه الأرض التي تمنحني نهاية السعادة في حياتي القصيرة؛ ولا ظروف المعيشة الضنك في الدير التي تعيدني إلى أيام من شبابي كنت قضيت منها، خلال مواسم القطاف، أكثر من صيف في حقول الكروم حيث وقفت على مظاهر الفقر عند غيري ممن هم ليسوا دائماً من بلدي ولا من ديانة عائلتي؛ أولئك الذين كنت أرى بعضهم لا يصلي إلا انفراداً وفي سواد الليل. كانوا مسلمين من بين آخرين من ديانات أخرى. وكانوا في أشد العوز. وكانت أجورهم أقل من أجورنا، نحن أهل البلد، للجهد نفسه.

البارحة، إذ عادني الأخ كريستيان هنا في غرفتي وأنا على حال من الوهن الصحي والألم النفسي الممضّ جراء هذه الحرب الأهلية التي أمست تحاصر الدير، قلت له: برغم ما في روحي من طاقة صبر، فأنا لا أشعر بخوف من الموت ولكن بهذا الذي يهز أركان إيماني ولا أعرف كيف أسميه.

فرد علي:

لعله القلق.

إنه ما فوق القلق.

أخي كريستوف. لست أنا من دعاك إلى المجيء إلى هذا الدير، إنما الرب. وليست رسالتك، التي كنت وجهتها إلى رئيس الكنيسة في الجزائر برغبتك في الاستقرار هنا، سوى رسالة

من الرب. نحن الآن بين يديه. وما كُتب في ألواحہ سيكون.

أعرف أننا هنا في بلد غير مسيحي لا مستقبل لنا فيه. هذا واضح. وأنا واع بمحدودية وجودي. كنا قبل شهر نلتقي جيراننا من المسلمين وكانوا يأتون لزيارتنا والسؤال عنا. واليوم كل شيء شح من حولنا. ولم يعد لنا هنا سوى بيت هو هذا الدير الذي يعيش هذه العزلة في دار الإسلام.

طمئن قلبك. ولنصل الآن.

إثر ذلك، خرجت إلى البستان فلحق بي الأخ پول. ونحن نمشي جنباً لجنب، بيننا صف من صفوف الجلبان الذي كانت قرونه ظاهرة الاخضرار متدلّية امتلاءً على بعد أيام من جنبها وبجانها في مربعين آخرين صفوف أخرى من العدس والحمص، كنا نتحدث عن أيام الربيع الخوالي الجميلة هنا وليالي الصيف المقمرة وعن ورشتي تصبير مربى المشمش وعصر الزيتون وجني العسل وتحضير خمرة الدير وعن أفراحنا خلال أعياد الميلاد ولقاءاتنا مع جيراننا وشركائنا من المسلمين نبادلهم التهاني بأعيادهم الدينية وعن معاناة الخوف، من إخوان الجبل، التي صرنا نتقاسمها معهم.

ثم ها هو الأخ سيلستان قد التحق بنا، قائلاً.

هذه السنة سيكون المحصول وافراً. سنخزّن ونصبر ونبيع أيضاً.

فتوقفنا واستدرنا إليه، يمشي بين صفيين.

فقال الأخ پول، ضاحكاً:

جيراننا المسلمون يقولون إن شاء الله حين يتوقعون.

وقلت، ناشراً راحتني:

أحب لهاتين اليدين أن تدميا لا من قطف الجلبان ولكن من نثر العدس والحمص لأنني
أجدهما لا تزالان رخوتين.

فتظرف لي الأخ سيلستان:

لملازمتها طويلا ريشة الكيثارة وقلم الشعر.

ذلك منه كان لا يعني بالنسبة إلي مدحا. فالإخوان في الدير يحاذرونني جميعا لسوابقي من
الطيش والتحرر والولع بالموسيقى والشعر. ولكنهم كانوا لا يستطيعون التصريح بذلك
لرئيس الكنيسة في مدينة الجزائر، لأنه هو من أقرني راهبا. أذكر أنني كنت كتبت له في
تلك الرسالة «سأكون راهبا مدعوا لخدمة هبة الرب لتكون قسمة بين الجميع. هذه الهبة
التي يعرفها روح الإسلام وتعتمل في قلوب مؤمنيه».

عشية عيد الميلاد الأخير كان إخوان الجبل قد زاروا الدير لاستشارة الطبيب الأخ لوقا
وأخذ أدوية. كانوا مرعبين حقا بألبستهم الأفغانية ووجوههم المتنمرة وأعينهم القاذحة
وأسلحتهم النارية وسكاكينهم القتالية؛ فسكنني من لحظتها، حد الأرق، هذا الخوف البهيم
إذ لم أعد أستطيع إخلاء قلبي منه بأي صلاة وبفعله راودني شيطاني أن أتحرر من أي
التزام تجاه الرب والبشر وأهجر الدير، الذي أضحي لا تصله من الأنباء غير أخبار الموت
بينما دائرة رعب التقاتل تزداد من حولنا تضييقا. إنني أحس أنها ستبلغنا يوما. ولا مفر. أما
ظهور جيراننا المسلمين من سكان تيبجيري من حول الدير فأمسى نادرا. أعرف أنهم
خائفون. إنني لا أحب أن أخمن ماذا ستكون عليه ليلتنا القادمة ولا غدنا إن كنا أصبحنا.

أمس، زارت مجموعة عسكرية مسلحة الأخ أميدي لتجدد له دعوة سلطات البلد إلى
ترحيلنا لفترة مؤقتة لأن المكان لم يعد آمنا فاعتذر، بعد استشارتنا. ولم يقبل، كما اتفقنا،
بإقامة حراسة عسكرية من حول الدير.

عقب انسحاب المجموعة العسكرية التي كان يقودها النقيب كمال، قال لنا الأخ أميدي:

إن كنا نذرنا أنفسنا للرب فإن الرب يعرف ما يفعله بنفوسنا وأرواحنا.

أحسست رجة في صوته لم أعهد لها منه. فما من أحد منا، لو تكلم مكانه، كان لا ينطق كلماته من غير أن تخالجه تلك الرجة. حينها، ولأول مرة، شعرت بأننا جميعا واحد وبأن واحدنا هو نحن الجميع.

لدى مغادرتنا قاعة اجتماعنا من أجل صلاة الثالثة أخذ الأخ لوقا يدي في يده سائرين في الرواق وضغط بأصابعه على أطراف أصابعي كما ليحس نبض قلبي.

أنا أكبركم سنا هنا في بيت الإله وأنت أصغرنا جميعا. أحب أن أطمئنك على أن إخوان الجبل لن يؤذونا بسوء. أعرفهم. وقد عالجت أكثر من مجروح لهم. وفوق هذا فإنهم أعطونا الأمان.

فقلت:

إنهم فرّق. وليست لهم قيادة موحدة. وهم يتقاتلون فيما بينهم أيضا. وقد تنقض فرقة منهم ما تعهدت به أخرى. أنت تعرف هذا كله.

معك حق. هذا وارد جدا. إنما الرب يكون دائما في عون من يدعوه ليأخذ بيده. هو ذلك.

فوضع راحته على كتفي وضغط قليلا بارتعاش:

سنكون أقوياء بشد أزر بعضنا بعضاً.

لم أقم لصلاة الليل. كنت في سريري إذ رحت أسترجع وجوه بقية الإخوان التي رأيتها، لأول وهلة، كما كان كل واحد منهم رأني، بسحنة باردة. لم يكن ذلك، فحسب، من آثار قلة الطعام وكثرة السهر في الصلاة والتأمل وقراءة الكتاب المقدس، ولا من توجس أمر جمل

يبدو لا مفر من وقوعه، ولكن من انتظار لحظة الغرق في العدم إلى الأبد. وها وجه أمي، وقد تقدم بها العمر سريعاً، أزاح عن ذهني كل وجه آخر. يا لطفها وسماحتها! لم أتمالك إذ أخذت من طاولة سريري قلماً وعلى دفترتي هذا كتبت مسودة هذه الرسالة أنطق لها كلماتها كلمةً كلمةً: أمي الغالية. أطمئنك على حالي وصحتي. أعرف أنك تنتظرين على جمر أن أخبرك أنني لا أزال أحياء، هنا في تيبجيري، في دير سيدة الأطلس. سأتلو لك، في البعد نشيد إنشاد. إنني في الطريق التي رغبت دوماً في أن أسلكها. في الليلة الماضية، التاسع عشر من مارس من هذا العام، ألف وتسعمائة وستة وتسعين، المصادفة للاحتفال بالقدوس يوسف، قابلت الأب كارمونا ومعه أنشدت ترنيمة المائة «الله محبة».

إلهي. كيف لصلواتي وأناشيدي وكلماتي وحدها أن توقف هذا الجنون من حولنا. إنني أشعر بدمدمته تقترب. إنني أبتهل إليك. فهل من ملجأ عاصم غير رحمتك.

إلهي حتى ولو كنت لا أراك فإنني أحسك. إنني أتضرع إليك في وحدتي هنا في أرضك فخذ بيدي.

الأخ لوقا. ثلاث حروب لمصير واحد

أكبرنا سنّاً على الإطلاق، في الدير، كان الأخ لوقا. فهو من وطئت قدماه تراب تيبجيري قبلنا جميعاً. وكان هو أسبقنا بالالتحاق بسيدة الأطلس. وهو من كان أكثر منا دراية بما عرفته الإنسانية من حروب خلال هذا القرن؛ فقد عاش الحرب العالمية الأولى وهو صبي والثانية وهو في عز التحفز وحرب الجزائر وهو في أوج الرجولة وبدايات حربها الأهلية وهو في أرنال العمر.

يا لمسار راهب مثلك، أخي لوقا، وهبته العناية حسن البصيرة وسعة القلب ورقة الروح فاصطفتك لتكون شاهداً بالعين والضمير على تلك التحولات كلها وجعلتك، لخلقك وسلوكك وإنسانيتك، جسراً بين معتنقي ديانتين عظيمتين!

كذلك قلت له في قاعة التمريض بالدير، وقد حقنني واقفا، في عضل فخذي، بجرعة سابعة وأخيرة من مضاد حيوي وصفه لي لإصابتي بالتهاب رئوي في منتصف شتاء عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين.

فقال:

كأنك، أخي أميدي، تضر في كلامك اللطيف أنك ستودعنا.

ليس ذلك ما في نيتي. وإن كنت أنت أحسسته فقد يكون. إنما أحببت، في لحظة مثل هذه تفرغ خلالها أذهاننا من متاعب الدنيا، أن أعبرك عما في قلبي لك من مودة قد لا تسنح بها فرصة أخرى.

سيطيل الإله في أعمارنا لفعل مزيد من الخير. وستظل مساعدي كما كنت من قبل في أحلك الظروف وأصعبها وأشدّها تأثيرا علينا. فكيف تمنع عن نفسك استحقاقا أنت أجدربه في عين الرب.

العفو، أخي لوقا.

إنني لا أزال أحس راحتته الدافئة بين كتفي وهو يرافقني في الخروج. وها جسدي يقشعر. وها عيني تدمع لرؤية خطه الجميل، خط الطبيب. لكأن رسم حروف كلماته شرايين جسمه وأوعيته وشعيراته. وأن حبره هو دمه الذي كان يجري فيها.

أنا لوقا، مثل لوقا الأنطاكي لأنني مثله طبيب. فقد كان هو واحدا من سبعين قديسا. وأنا واحد من تسعة رهبان، اليوم. فمن كان الذي كئاني. إنني لا أذكر. فقد وجدتني يوما من الأيام أنادي لوقا في الدير وفي خارجه بين جيراني المسلمين هنا في تيّبجيريّ وبين إخوان الجبل أنفسهم. أقول إنها كنييتي الدينية التي صرت لا أعرف إلا بها. وبها عشت إلى اليوم. اليوم تعني مسافة العمر الزمنية التي قطعتها منذ خروج رأسي من بين أحشاء أمي في الحادي والثلاثين من شهر جانفي عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر، على بُعد ستة شهور

مما كان سينزل على البشرية من أهوال حرب عالمية أولى وما ترتب عليها من وحشية ومجازر ومأس وخراب!

فلا أمي أخبرتني يوما ولا أبي كيف واجها حربا عبثية مثلها شوهدت وجه الإنسان ورشت روحه. ولحظي، فإنها لم تبتمني كما يبتّم مليون طفل. ولم تطحني كما طحنت ضحاياها الآخرين. واليوم، كلما حلت ذكراها طفرت إلى ذهني صور وشهادات عن فظائعها، من تلك التي شاهدتها أو قرأت عنها. فهالني منها كل مرة ما كان يحدثه غاز الخردل في الخنادق وقنابل المدفعية الثقيلة بين الأسلاك الشائكة في صفوف المتحاربين من موت وحشي وهمجي أشد من إبادة الجرذان فتكاً.

إن أنا عدت إلى نفسي، في لحظات تأملي كما الآن في غرفتي، هنا في الدير، فسألتها بأي قدرة بقيت على قيد الحياة إلى هذا العمر، فأنجو من حربين عالميتين مدمرتين ومن حرب الجزائر المؤلمة، وجدت أن إرادة الإله هي التي وجهت مساري إلى نهاية أخرى؛ ليّنتني كنت أعلمها في ظروف هذه الحرب الأهلية التي تمزق اليوم جسد هذا البلد.

قبل حوالي شهرين كنت بلغت، هنا في سيّدة الأطلس، سن الثانية والثمانين. يا إلهي! عمر يبدو طويلاً، قياساً إلى من يفارقون، في عمر أقصر، هذه الدنيا الجميلة، في هذه الأرض الخصبة الطيبة. لكنه عمر هو في شعوري ليس سوى هباء من حلم. إن جئت أذكر منه ما لا يزال عالقا بذاكرتي، حاجبا عني بقية ما صاغني، فهو خدمتي العسكرية في جنوب المغرب بصفتي طبيبا خلال تلك الحرب العالمية الثانية التي أوقدت نارها يد الإنسان بقدر ما تكون أكثر اتساعاً وشمولا وتدميراً وأشد من الأولى إبادة بأسلحتها المتطورة جوا وبحرا وبراً.

فما الذي كان حدث حتى لا أرمي في ساحتها فأقتل فيها أو أقتل؟ إنني لا أدري. فالصفة الطبية ليست شفيعا لمجنّد في الحرب. ومهما يكن. ففي أعماقي لم أبغض شيئاً في الدنيا بغض الحرب. لذلك كنت أخرجتها، في تفكيري، من قائمة ما هو مقدر للبشر ولا مفر منه، ما دامت هي من تدبير الإنسان وجشع الإنسان وحقاقتة وعماه عن وصية «لا تقتل» الإلهية.

خلال أدائي خدمتي العسكرية تلك، غالبا ما ساورتني، وكان ذلك مني شعورا غريبا، مخاوف أن أحوّل من أجل الخدمة الطبية إلى منطقة مشتعلة من دائرة المعارك. لعل الرب أراد لي أن ألبث في بيته، هنالك في جنوب المغرب، كي أحظى بحبه الغامر وبعاوية النفس. ولكن ها أنا، وقد أنهيت خدمتي العسكرية فعدت إلى بلدي هنالك في فرنسا، أمام امتحان تمنيت أن لا أتعرض له في معمرة حرب.

على كل، قلت في نفسي.

فإرادتي، لأنه كان زميلا سابقا لي في كلية الطب وصديق عائلة وكان متزوجا وأبا لثلاثة أطفال ولأن زوجته التي هي أيضا صديقة عائلة مثله كانت راسلتني تخبرني أن الكاستاپو ألفت عليه القبض وحوالته إلى ألمانيا للعمل هناك مثل الألوف غيره وأنها هي والأبناء في وضعية صعبة، اخترت أن أكون سجيننا بدلا منه في أحد المحتشدات النازية. ولم يكن ذلك بالنسبة إلي خيارا سهلا. فقد سيطر علي ارتباك لساعات لم أفكر خلالها إلا في الموت. ولم تفارق جسدي قشعريرة السفر إلى المجهول. فوجدتني في النهاية لا أعرف كيف أرد على رسالة السيدة ماري.

في الصباح الموالي، بعد ليلة قضيت شطرا منها متفكرا، كنت انتهيت إلى عرض خيارتي على من أثق به فاتصلت بأسقف كنيسة المدينة لأطلعه على الأمر وكان توقع أنني جئت من أجل حصة اعتراف فدعاني إلى المقصورة. ثمّة، وبدل ذلك، سمع مني شرحا لوضعية عائلة الطبيب باكيس الصعبة.

فسألني، في همس وكأنه يفشي إلي سراً:

هل أنت مستعد للفدية؟

إنها هبة من الرب. وسأكون سعيدا بها تضحيةً على طريق المسيح.

أعرف ضابطا كاثوليكيا في الجيش الألماني يمكنه أن يقترح علينا حلا.

هل سأعود إليك؟

غدا في مثل هذا التوقيت.

في الغد، استقبلني الأسقف عند مذبح الكنيسة ومن فوقه رفع وثيقة أولى سلمني إياها.

هذا ترخيص باسمك تدخل به ألمانيا.

ووثيقة ثانية.

وهذا أمر باستبدالك بالطبيب باكيس للمدة التي يقتضيها العمل هناك.

ووثيقة ثالثة، أبقاها بيده لحظة تنهد خلالها ثم سلمني إياها.

وهذه رخصة لعودة الطبيب باكيس.

أمام صمتي، لأنني كنت أفكر في الطريق إلى داخل ألمانيا التي كانت في ذهني معبرا من معابر الجحيم، ابتسم لي. كنت أعرف أنه فعل ذلك ليشد أزرني.

سيأخذ الرب بيدك.

المجد له.

رعتك عنايته.

هنالك قضيت سنتين عشت خلالهما ما كان يترتب على الحرب من فظائع على الإنسان. كان سجنائهما في محتشد داشو الضخم الرهيب المرعب، الذي نُقلوا إليه من البلدان التي تم احتلالها، أدنى درجة من قطيع موبوء. كانوا بلا كرامة. وكان ذلك لا يؤلمني بالقدر الذي يعذبني التمييز بينهم في العلاج والطعام، على قلتها وسوءهما، عندما يتعلق الأمر ببرنامج التكفل بجرحي من الجيش الأحمر ومرضاه. كل شيء كان محمدا لهم مسبقا، تنفيذًا

لبرنامج الحرب الشاملة، كي يموتوا في مرضهم بجراحهم وتعفنهم وجوعهم. كان التجويع في المحتشد من أشد أساليب التعذيب الذي يجعل الجسد يأكل من نفسه حتى لا يبقى منه غير جلد على عظم.

ذات يوم، كان وقع أن فاجأني الجندي السجين رومانوف بأن استغرب لي:

هناك شخص آخر يختفي خلف هذا الوجه، يا دكتور!

هل تراني ألبس قناعا؟

كل شيء فيك يذكرني بوالدي؟

هل كان طبيبا؟

كان راهبا في الكنيسة الأرثوذكسية بموسكو.

وأين هو الآن؟

قُتل.

أسف.

كنت أحلم بأن أوصل رسالته.

وما منعك؟

كان التطهير ثم كانت هذه الحرب.

سيأتي يوم يتحقق لك فيه حلمك.

أراه بعيدا، بعيدا جدا.

من يدري!

هل تمد إليّ يدك؟

ها هي.

أووّه! شكراً.

من كل ما لمستّه، في مهنتي الطبية، من أنواع بشرات المرضى، أحسست جلد يد رومانوف مثل طبقة غراء على سطح متيبس. كانت درجة حرارته نارية تعرّق منها رأسه الحليق ووجهه المكدود. وكانت نوبة سعاله في تلك اللحظة هي آخر ما خرج من صدره المنخور على إثرها انطفاً ما كان بقي في عينيه وسكن إلى الأبد.

في صيف نهاية الحرب خرجت من المحتشد حراً، ولكن مسكوناً بوصمة عار في ضميري جراء ما كان الإنسان يُلحقه بالإنسان من وحشية، إثر دخول جنود الجيش الأحمر المحتشد ففتحوا أبواب مراقده وقاعاته وزناناته ومخابر تجاربه البشرية. على أنه بقي في حلقي، مثل الألوف من المساجين، غصة أنه لم يتم إلقاء القبض على جميع جلاديه. فالضباط كانوا فروا بساعات من وصول الجيش الأحمر ومن بعدهم بقية الحلفاء.

لاحقاً، كنت سأقرأ في الصحف التي غطت محاكمات نورنبرغ أن الضابط النازي المسؤول عن المحتشد كان ضمن المدانين. كانت صورته واضحة في الصحيفة التي لما قدمتها لباكيس، ونحن نتناول الغداء في بيته، أكدها.

وقال:

إعدام مجرم حرب ضد الإنسانية مثله شنعاً هو أخف عقاب له.

بعد عام من ذلك، وفي عز صيف الجزائر غير الرطب ذي الليالي الآسرة الساحرة بصفائها، شاء لي قدري أن أدخل دير سيدة الأطلس. فكان من حظي، وهي عناية الرب قبل كل

شيء، أن صادف مجيئي يوم الاحتفال بالقدّيس أوغسطين، وليد هذا البلد ومتصوفه وخطيبه وفيلسوفه. فإن أول ما كنت نقشته في حياتي على لوحة خشب وعلقته عند رأسي فوق حافة سرير نومي تلك اللؤلؤة من كلامه «كل شيء من شؤون هذه الدنيا فإن فسارع واذكر اسم الإله. واحرص على أن تتوب لأن حياتك في هذه الدنيا قصيرة. فلو فقدت كل شيء سيبقى لك الإله لأنه كل شيء».

لم أكن من الولوعين بالأكل. وبرغم ذلك، وجدنتني أتكفل بمطبخ الدير. وأنا أحضر هذه الأكلة أو تلك لهذا الغداء أو ذاك العشاء فتفوح رائحة الطبخ، كانت تمر بذهني وجوه أهالي هذا البلد ولا سيما جيراننا من المسلمين الذين يهتّك أجسادهم الفقر ويضوّرها الجوع وتنخرها الأمراض خلال تلك الأعوام الخمسة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية؛ فإنها كانت من أشد الأعوام هلاكاً للأطفال المتروكين لقدرهم فرائس للخرع والحصبة والسل.

بيني وبين نفسي، وأنا أعين تلك الدرجة القصوى من الغبن، كنت أستغرب كيف كانت ضمائر حوالي مليون من المستوطنين والمعمرين الفرنسيين، الذين كانوا يأكلون ويشربون ويتطبّبون ويسافرون ويرسلون أبناءهم إلى المدارس، تستريح أمام بؤس تسعة ملايين من المسلمين المحرومين من كل شيء في بلد هو بلدهم وخيراته هي خيراتهم. ولم أكن أملك شجاعة ولا قوة ولا إرادة لأن أناهض نظام احتلال مؤسسا على التمييز والفصل، بعد أن استقر اليقين لدى الميتروبول، كما لدى ممثلها الحاكم هنا، أنه لا يمكن تحويل شعب هذه الأرض عن عوائده وثقافته وديانته إلا بتجسيد مشروع الإبدال والإبادة في الميدان، مثلما كان يراه غلاة الاحتلال.

فقد بلغ بي اليأس يوماً أن تصورت لو أن هذه الأرض كانت مسيحية. لو أن روما لم تفقد فيها إرثها الديني. ولكن ما إن خرجت من الدير فاختلطت بالمسلمين في سوق مدينة المدينة وفي شوارعها ومقاهيها وأحيائها الشعبية وسمعت الأذان يرفع من صوامع مساجدها ورأيت تلك العوائد في الولايم والمآتم والأعراس، التي كنت أحضر بعضها أحياناً،

ولا سيما في رمضان وفي عيدي الفطر والأضحى وألتقي إمام المدينة فنتبادل السلام والتهاني والمباركات، حتى راجعت نفسي. وأنصتُ لهذا الصوت الذي نبع من داخلي.

لا يمكن، لأننا لا نملك حيلة لإرجاع عجلة التاريخ إلى الخلف.

وما هي إلا تسعة أعوام، كانت مرت على نهاية الحرب العالمية الثانية، حتى ها حرب أخرى تشتعل نيرانها هنا في هذا البلد. وها رباط تلك العلاقة الذي كان يصل بيني وبين جيراني من المسلمين يكاد ينفصم، في منطقة المدينة كلها التي كنت أطوف، برفقة الأخ أميدي، أريافها وقراها لأفحص مرضاها ومريضاتها وأطفالها وأصف لهم من العلاج التقليدي ما يمكن أن يسعفهم وأقدم لهم ما بحوزتي من دواء كانت تجود به على الدير منظمات خيرية وأصدقاء أطباء وصيادلة لمساعدة المحتاجين والمعوزين الذين كانوا لا يقتربون من مكاتب الفرق الإدارية المتخصصة للحصول على العون خشية أن تعاقبهم جهة التحرير.

للحقيقة، فإن تلك الفرق كانت تخوض من جانبها الحرب النفسية دعما للمجهود العسكري. وقد أصبحت أنا نفسي محل شبهة من كلا طرفي الحرب. فإني كنت أستقبل المرضى والمريضات في مستوصفين تابعين للدير أحدهما للرجال والآخر للنساء والأطفال. إضافة إلى الأمراض الصدرية والجنسية والتيفود وهشاشة العظام، كانت أمراض الجرب والقرع وآفة تفشي الصئبان والقمل تمزق قلبي إذ أقف عاجزا عن التخفيف منها بين السكان المسلمين. وكنت أتألم أمام الحالات المستعصية، لاسيما عند الأطفال الذين شوهمهم المرض، كيف يُترك هؤلاء الأبرياء لقدرهم. كيف لا يحظون بقليل مما يحظى به غيرهم من الأطفال الآخرين من أبناء المستوطنين والمعمرين والأقدام السوداء.

في صلاتي سألت الرب مرة إن كانت ترضيه حال مخلوقاته من أهل البلد، لأني كنت على شفا أن أفقد إيماني بعدالته. وكم ترجيت أن تتوقف الآلام فما كان إلا أن زادت حدة إرادته الطرفيين اللذين شاء لي قدرتي أن أوجد بينهما فلجمت عواطفي عن الانحياز إلى أحدهما بالرغم من أن حربا تحررية لا تترك لأحد خيار الحياد ولو كان من رجال الدين.

فها هو صديقي إمام مسجد المدينة السابق تخطفه الاستخبارات وتعذبه حد الموت ثم ترمي جثته مشوهة في ساحة المدينة؛ لأنه اختار أن يكون في صف المقاومين بجمعه التبرعات المالية من المصلين ومن تجار المدينة المسلمين لدعم مجهود حرب التحرير. وصمد حتى لا يقر بأسماء من كانوا يسلمونه الأموال وبمن كان يتصل به لتحويلها. فكنت أنا الضحية للانتقام له، وهذه من غرائب ما وقع في تلك الحرب، إذ خطفتني من الدير مجموعة جنود من جيش التحرير في ليلة شتوية مظلمة ممطرة وباردة. ولأنني كنت في تلك الأيام أعاني من نوبات ربو صارت تقعدني عن أي عمل، طلبت منهم شيئاً واحداً. أرجوكم أن تسمحوا لي بالمرور على صيدلية الدير لأخذ بعض دوائي.

فرد علي قائدهم:

لك ذلك.

فلم أحمل سوى بَخَّاختين، بينما كانوا هم أخذوا، بعد استئذاني، ضمادات ومراهم وعلب أسبيرين وما كان متوفراً من الپينيسلين. كانوا عشرة. كنت أتوسطهم وهم يسرون في رتل هندي نحو غابة جبال تَمزْغِيدَة. لم أعرف كم دام مسيرنا. إرهافي، لأن إيقاع سيرهم كان خبياً، هو ما جعلني أخمن أنه كان طويلاً طول ليالي الشتاء التي لا يطلع صباحها إلا متأخراً.

أثناء المسير، طلبت مرتين أن أتوقف لحظة لتناول دوائي. وفي كليهما كانت أنفاسي تكاد تحتبس. لم يمانع قائدهم، الذي كان من قبل أمرني بأن أغم على فمي حين أسعل.

ضع يديك معاً على فمك حين تكح.

لم أنطق كلمة. كنت أدرك سبب ذلك. كنت أرطدي القلنسوة على الرأس والعباءة بالمنطقة وأنتعل حذاء.

حتى إذا كانوا أدخلوني أحد المخابئ قابلني من بدا هو الضابط الأعلى رتبة وقد أشار إليهم بالخروج مستبقيا من كان يقودهم. كان في زيه العسكري. وكان يحمل مسدسا في حزامه. وكانت على كتفيه شارة نجمتين. ألقى عليه السلام، كما كنت أفعل مع جيراني من المسلمين، فرد. وأشار إلي بالجلوس على الأرض. لم يكن المخبأ باردا كثيرا. على مجمر مشتعل كان إبريق قهوة ومن حوله أرضاً فناجين خزفية ذات عروة. فإني لم أشعر في حياتي، حتى في المحتشد النازي، برغبة هاصرة في احتساء قهوة؛ لتلك الرائحة المنبعثة، المثيرة لغدتي اللعابية، التي لم أكن أعلم أنها من عشبة الشيخ.

سألني الضابط:

هل تريد قهوة.

من فضلك.

وأنا أرشف الرشفة الأولى، وقد نزل السائل الساخن المسكّر المعطر بتلك النكهة عبر حلقي ممتصا بقاياها في لساني، أحسست أنني أعود من غيبوبة بفعل مصل. فقد أمهلني الضابط أن أنهى ما في الفنجان قبل أن يتوجه إلي، مرة أخرى.

كان من المفروض أن نصقّيك هناك في الدير ردا على قتل الإمام.

قال ذلك وتفرسني، منتظرا رد فعلي.

قلت:

ربما لأن ساعة أجلي لم تكن قد حانت.

ربما. ولكننا ارتأينا أن نؤجلك. لأننا نحتاجك لعلاج بعض جرحانا.

أفعل ذلك بطيب خاطر وليس تحت أي نوع من التهديد لأنني أقسمت على ذلك.

أنت خائف؟

لا يصيبنا إلا ما تريده لنا مشيئة الرب.

يقتلون إماما لنا. فهل نحن عاجزون عن قتل كاهن لهم؟

الإمام كالكاهن...

قطعت عبارتي لاستعادتي وجه صديقي الإمام المقتول ثم واصلت.

هو الإمام وأنا الراهب اختارنا الإله لنعلي كلمته ونمجد اسمه وننشر محبته.

نحن نعرف ما يربط بينكما.

أجل. لم نكن نخفي مودتنا بعضنا عن بعض. كانت بيننا علاقة مخلوقين من مخلوقات الإله. كنا مقتنعين بأننا من أب واحد وأم واحدة. آدم وحواء. كان الإمام على ورع مثالي. محبو أوطانهم قديسون. مات شهيدا. وقد أكون على طريقه نحو الشهادة. هل هناك شيء أؤمن من ذلك في حياة من نذر نفسه للرب؟

لم يعلق الضابط. ففي لحظة استغراقه الذهني، واقفا أمامي يرمقني بعين لا عداوة فيها، تمثل لي الإمام كما عهدته خلال صدف لقاءاتنا رجلا مؤمنا على سماحة تزيدك به ثقة. فهو الوحيد، يومئذ، من كان يحذق كلماتي لأني كنت أدرك أنه يحسها نابغة من قلبي. كان يعرف اللغة الفرنسية. ولكن نادرا ما تبادلنا بها الحديث. وكان ذلك ما قربني منه أكثر فتعلمت العربية منه ومن جيران المسلمين. كان أحيانا، حين يضرب لي مثلا بآية خلال جدال بيننا حول مسألة دينية ما نختلف حولها، لا يشرح لي لأنه يرى في عيني أنني فهمت المعنى. إنني لا أنسى أن أول خلاف بيننا حول التثليث، الذي لم يصرح لي به أنه شرك في الإسلام وأنا أفهم ذلك حتى لا يجرح عاطفتي، كان السانحة التي زرعت بيننا تلك الثقة.

ومنه يومها حفظت آية «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن». كان الإمام روحا من تلك الآية.

ثم ها هو الضابط صرف نظره عني إلى قائد المجموعة، التي خطفتني، وهمس له كلاما لم يظهر منه على وجهيهما ما أثار توجُّسي. لعل الرب وهبني أيضا فطنة التفرس. ثم أمره بأن ينقلني هو وثلاثة جنود معه إلى مخبأ آخر كان عبارة عن كازمة مهيأة بأسرة ميدان وبمولد كهربائي وطاولة وكرسيين وخزانة معدنية صغيرة بها أدوية وأدوات جراحة؛ حيث قضيت خمسة عشر يوما عالجت خلالها ثلاثة جرحى من بين أربعة فجبرت كسر ساق الجندي الأول واستأصلت رصاصة الجندي الثاني من بطنه وبترت مشط قدم الجندي الثالث الذي كان مهددا بالغرغرينا. أما الجندي فلم أستطع لها إنقاذا. كانت مصابة في الرأس والصدر بشظايا قذيفة. كل ما فعلته أنني خففت عنها من آلام هذيانها بحقنات من المورفين كان الضابط هو الذي أحضرها بنفسه. كانت الجندي في الخامسة والعشرين أو أقل. وكانت على جمال فائق. وقد انقطع كل نبض ونفس فيها بدت أنها استراحت أخيرا.

تحت شجرة بلوط معمرة، دُفنت الجندي في بزتها النظامية. وكان الضابط، ومن خلفه الجنود، هو الذي صلى عليها. ثم خطا نحوي حيث كنت واقفا غير بعيد أتابع المراسم.

وقال بثبات ووقار:

فريدة كانت هي طبيبتنا.

وشرح لي محياه الجميل:

تتعدى وتصلني. ومع نزول الليل سيرافقك جنود إلى الدير. لا أحب أن تتدهور صحتك معنا. هناك ستكون قريبا من مستشفى المدينة.

وابتسم لي ابتسامة صافية وودية.

نحن حين تفوتنا أوقات صلاتنا نتداركها جَمْعًا.

أعرف ذلك، حضرة الضابط. سأصلي. وسأدعو لك.

فمد إليّ يده، مصافحًا.

شكرا لك. رافقتك السلامة.

رعتك عناية الرب.

عشت، بعد الاستقلال، أمّني نفسي بقاء ذلك الضابط، كما كان الأخ سيلستان لقي الضابط الذي أنقذ حياته، لأنني مدين له بحياتي. فقد توقعت في الساعات الأولى من اختطافي أن تكون تلك هي آخر لحظات أحيائها قبل إعدامي. غير أنني اليوم لا أزال أحسب أن مصيري كان سينتهي نهاية أخرى لو وقعت بين يدي مسؤول عسكري آخر في جبهة التحرير. فالحرب غالبًا ما تأخذ الطيبين والإنسانيين والمقدّسين لحرمة الدم. وسواء أكان الضابط استشهد أم لا يزال على قيد الحياة أم توفي فإن الرب اصطفاه ليكون من الخيرين. في إحدى صلواتي الصباحية، وكانت توافقت مع أذان الفجر المرتفع من المسجد غير البعيد، ناجيت ربي كيف أرد دينًا كبيرًا قيمته حياة إنسان فسمعت مناديا من أعماقي أن أفدّ بقلبك وروحك وجسدك الفقراء والمعوزين والمرضى من حولك. فقلت لن أتوانى ما دامت يد الإله تقودني.

انتهت تلك الحرب القاسية. وكان الاستقلال؛ غير أن الفترة التي تلتها كانت أشد وطأة على أهل البلد. فقد خلت المستوصفات والمستشفيات والمغازات والمخابر والإدارات العمومية من مستخدميها والأقدام السوداء، إلا نادرا. وأتلفت المحاصيل الزراعية. وخربت المخازن. وأحرقت المزارع. وتفككت حلقات سلاسل توصيل الأغذية والأدوية وبقية المواد الأخرى ذات الضرورة. وثارَت دوامة التصفيات الجسدية بالجملة في حق الحزكي وغلاة الأقدام السوداء الذين تخلفوا عن الرحيل إلى الميتروپول. ونتاجت هنا وهناك بوادر حرب أهلية.

في ذلك كله، كان الاستثناء أننا في الدير لم نشعر بأي خطر يتهددنا. بل كان كثير من السكان المجاورين ومن أهل مدينة المديّة هم الذين أقاموا حولنا الحراسة لعدة أسابيع إلى أن بسطت الدولة الجديدة سلطتها في المنطقة.

وبعد أشهر، لم أعد أنا الذي يتوجه إلى تلك الأماكن البعيدة لمعاينة المرضى. فقد صاروا هم الذين، نظرا إلى نزوحهم من المحتشدات إلى المدينة والقرى المجاورة، يتوافدون على مستوصف الدير. كنت لا أستقبل أقل من مائة مريض في اليوم. كان ذلك، برغم إرهاقي يسعدني لإحساسي أن الإله يأخذ بيدي. وهو الذي يسعفني في الأداء، إضافة إلى إقامة الصلوات وواجبات المطبخ والعمل في الحقل.

هل كنت غفلت عن جسدي، وهو لم يفتأ يندرنى، بواسطة قلبي وكليتي ورئتي، بأنه لم يعد يتحمل أكثر مما أحمله إياه، فلم أنتبه إلا وأنا في هذا العمر الأرنل، وقد وهن القلب مني وأصاب ربوي ما تبقى في من قدراتي الحركية والنفسية!

أمس، واجهت أحد ضباط الاستعلامات في جيش البلد، الذي يخوض حربا ضد إخوان الجبل ويتشكك من حولي كما كان الجيش الفرنسي يفعل تجاهي خلال حرب التحرير، جاء يحذرني من معالجة إخوان الجبل المجروحين في الدير أو في مكان آخر، كما قال.

فقلت له:

أنا طبيب. ومن واجب الضمير المهني علي أن أنقذ حياة الآخرين من غير أن أسأل أو أبحث عنم يكونون ولا عنم يقف وراءهم.

فليّن معي لهجته، قائلاً:

أعرف. ولكننا نحن غير مطمئنين على سلامتكم.

سيكون الإله في عوننا.

إنما جئت أحذركم.

سأبلغ الإخوان في الدير.

فأوما برأسه بأن الأمر كما أرى. فرافقته إلى باب الخروج الذي كان دخل منه، حيث كانت فرقة مسلحة في انتظاره.

وأنا راجع ها هو الأخ أميدي يأتي في اتجاهي. توقفنا على بعد خطوة بيننا.

قال:

خييراً، أخي لوقا.

يبدو أن الوضع الأمني من حولنا أخذ في التردّي. أكدت للعسكري أنني سأبلغكم تحذيراته لنا من إخوان الجبل.

إنها ساعات عصيبة فعلاً.

شد الأخ أميدي على يسراي بيمناه فطاوعته في المشي صامتين باتجاه البستان حيث كان بقية الإخوان منشغلين بنزع الأعشاب الضارة من مربع الحمص.

ثم همس لي:

كأني أشم رائحة من ليلة تمرّكيدة.

غريب! مثل ذلك هو ما فزع له ذهني من تحذيرات ضابط الاستعلامات.

هل تذكر المهندس ألكسندر؟

وكيف لا!

لم نزد كلمة. أنا لم أشك في أن الأخ أميدي كان مثلي، خلال المسافة إلى مربع الحمص، يسترجع وجه ألكسندر، أحد الناجين هو ورفيق له من بين أربعة عشر كرواتيا كانوا يشرفون على بناء سد في تمزجيدة غير البعيدة عن تيبجيرين، الذين دُبحوا في ليلة عيد ميلاد كانوا يحتفلون به في قاعدة حياة أنشئت لهم من مواد بناء مسبقة الصنع.

فأنا والأخ أميدي كنا، بعد أسبوع من المذبحة، زرنا في مستشفى مدينة المدينة المهندس ألكسندر، الذي سبق له أن تردد على الدير وحضر أكثر من قداس. وساعتئذ، عزا لنا نجاته إلى معجزة. فقد كان كمن يُخرج رأسه من حال غرق وهو يعيد علينا ما حدث بكلمات حشرجها الألم.

داهموا علينا المكان، بشكل مباغت شرس وفظ بعد أن جردوا الحراس، الذين لم يقاوموا، من أسلحتهم وقيدهم، مُشهرين في وجوهنا كلاشنيكوفاتهم. فتمسرنا في وضعياتنا لا يتحرك فينا شيء بفعل الهول الصاعق الكاسح؛ لا الكؤوس في أيدينا ولا السكاكين أو قطعة الخبز أو اللحم ولا زجاجة النبيذ التي كنت بصدد فضاها وكأننا تحجرنا بغتة مثل موتى يوميبي الرومانية. بعثروا ما كان على المائدة الجماعية من طعام. وكسروا الكؤوس وقنينات الشراب. وشمنا قائدهم بأننا أنتن من خنازير لأننا نأكل الجيفة. ثم بصق عند قدميه على اللحم المرمي. وسألنا هل فينا مسلم. ومن الهلع والرعب نطق أحدنا أنه مسلم. وراح يردد الشهادة بتلعثم طفل لم يحفظ درسه. وقرأ شيئا من القرآن بلكنة مفرومة.

وتابع ألكسندر، بآثار هلع لا تزال راسبة على ملامحه، منقلا نظراته بيني وبين الأخ أميدي: لقد أنجى ذلك بيتروفيتش من الموت. كنت أعرف أنه على علاقة بفتاة جزائرية كانت تشتري عليه ليتزوجها أن يختن نفسه وينطق الشهادة ويحفظ فاتحة القرآن. كانت الفتاة طالبة في كلية الهندسة وكانت جميلة وفاتنة حقا. كذلك وجدتها يوم قدمها لي مرة في مدينة الجزائر.

ثم شد بيديه معا على رقبتة التي كانت ملفوفة في ضمادة.

أما أنا فقد ذبحوني من القفا، كما ذبحوا البقية. إنني لا أعرف كيف لم أمت. أي معجزة أنقذتني. لا أدري.

وبعد لحظة تأمل أخذت نظره بعيدا، وعلى شفتيه خيط ابتسامة واهنة.

لعل ذبّاحي استهان بغلظة رقبتي وصلابة جلدها مثل تمساح.

فقال الأخ أميدي:

عناية الرب.

فأغمض ألكسندر عينيه، محركا رأسه على الوسادة حركة تألم اعتصرت لها شفاته، ثم فتحهما. وقال إن الجيش هو الذي عثر عليه في صباح اليوم التالي في بركة الدم وعروقه لا تزال تنبض فتّم نقله على متن مروحية إلى المستشفى. ثم سحب نفسا عميقا زفره. ونطق أنه مدين بحياته للنقيب كمال.

وقال، أخيرا، بنبرة شاجبة:

النقيب كمال مسلم. قبله عرفت مسلمين جزائريين. وأنا الآن في مستشفى أطباؤه وممرضوه وعماله مسلمون. ما فعلته الجماعة معنا إهانة للإسلام.

ثم أغمض عينيه مرة ثانية متوجعا. فانسحبنا من غرفته، وقد تعطلت على لسانينا أي لغة.

عند مخرج المستشفى قال لي الأخ أميدي:

إن كان ألكسندر أنقذته من الموت معجزة فنحن لا ندري ماذا سيجعل موتنا موتا طبيعيا.

لحظتها، أحسست رعشة ساخنة؛ بينما كانت عبارات كلمات ألكسندر لا تزال تحدث لها في ذهني موجات انفجار راحت تتوسع سعة دائرة عنف هذه الحرب الأهلية التي تخلف،

كزلزال، الموت والخراب حافرة إلى العمق الهوة بين الإنسان وبين يد الرب الممدودة.

في صلاتي المسائية انفتح قلبي لوجه الإله.

يا إله الرحمة! متى تتحرك يدك الأخرى لإطباق طرفي الهوة. إننا لا نملك حيال هذه الدوامة الدموية سوى صمتنا وصلاتنا. فلنُسقط إرادتك هذه المتاريس التي تُنصب بيننا وبينك، بيننا وبينك وبين جيراننا المسلمين. نحن جميعا عبادك. نصلي لك ولمجدك ومن أجل السلام في هذا البلد.

لم يغب عن ذهني أبدا أن ذبح الكرواثيين الاثني عشر في تمزُجيدة ليلة عيد الميلاد، قبل ثلاث سنين، لم يكن بسبب أنهم مسيحيون أجنب في دار الإسلام كان عليهم أن يغادروها، تنفيذًا لبلاغ الإنذار القاضي بتصفية كل أجنبي يتعاون مع سلطات البلد بأي صفة كانت، ولكن لتوجيه ضربات متلاحقة لاقتصاده وجعله يبدو لشركائه وللعالم كله غير آمن.

سبق أن كان الأخ أميدي تخوِّف لي عقب صدور بلاغ الإنذار، قائلا.

هل ستشفع لنا في دير سيدة الأطلس طبيبتنا وطبيعة حياتنا السلمية الحيادية في أن لا نصير في عيون إخوان الجبل أعداءً وجب قتلهم؟

فرددت:

أمل أن تكون مخاوفنا مجرد هواجس لن نلبث أن ننتصر عليها بصلواتنا.

وفي أعماقي ناجيت قدرتي أن يجنّبني أن أختطف مرة أخرى. فإني لم أعد أطيق مزيدا من الشدائد والانكسارات. ورجوت قلبي أن يكف عن تعذيبي بمخاوفي أو أن يتوقف لأستريح إلى الأبد!

وأنت، يا نفس، ما لك حتى في صلاتي الأخيرة لهذا اليوم تحديثيني بهذا الريب الذي يدهم علي باب روحي المحصن بإيماني الخالص بما تريده لنا مشيئة الرب.

هل لا يزال لحضورك هنا جدوى؟

كُفّي! وإلا فهو الشيطان يفُوه من خلفك.

ليكن. فمئذ ثلاثة شهور قد بلغت الثانية والثمانين. فلطالما ألهمك القديس أوغسطين. ألا تذكر هذا «نحن نلتقي مع غيرنا من الناس ويلتقوننا ولكننا نكاد لا نلتقي مع أنفسنا إلا نادرا». فامنحني أن ألتقيك.

أعرف أنني مريض القلب والكليتين والرئتين. وبرغم ذلك سأكون لغيري في هذه الظروف الأمنية الصعبة ما بقي رمق من حياتي.

ولن تغادر تيبجيرين؟

أبدا. والمجد لسلطان الرب.

الأخ ميشيل. قلق في عزلة الحزب الأهلية

ما تركه الأخ ميشيل، في هذا الدفتر الحميم الخفيف خفة ظلّه، يسيّر قياساً إلى حياته التي لم تكن على قدر من اليسر والدعة.

عرفته على طبيعة مخالفة قليلاً لطبائع بقية الإخوان، متميزة بالعزلة، وهو الذي ينبغي ذلك؛ ليس تجنباً منه لأي إحراج مع غيره، وما كان أحد في الدير ممن عرفته من يُحرج غيره بقصد، ولكن لشعور، هكذا كنت أحسه منه، بالتححرر من قيد مجاملات بيننا هي أوهن من خيط في بيت عنكبوت.

كان لا يخالطنا تقريبا إلا في أوقات الصلوات الجماعية وفي وجبات الأكل الثلاث - هو الطباخ الماهر الذي قال عنه الأخ لوقا يوماً إن النحلة لتغار مما يخرج من بين أصابعه. فإنه مذ دخل هذا الدير ما قصر ولا خلق معاذير للتخلف عن الأعمال التي تتطلب يد الجماعة، التويذة كما يسميها ناس البلد، ولا سيما في مواسم الجني صيفا وخريفا وغيرها مما هو محدد بشكل مضبوط لكل منا.

لم أكن الوحيد من كان يفتقد ميشيل بين آنٍ وآخر حين نكون مجتمعين من غير ضرورة ملزمة أو إذا ما كنت احتجته في أمر شخصي، كمساعدتي في إعادة الكتب إلى رفوفها مرتبة حسب الاختصاص، أو كان غيري طلبه في أمر ما، مثل إنابة عن تأدية عمل أو جلب شيء، فلم يرده أبداً.

فغالبا ما كان، بمبادرة منه، يُصلح حنفية أو يبذل مربع زجاج نافذة تشقق أو يشحم مفاصل باب صارت تُصرصر من الصدأ أو ينظف المراحيض بماء الجاقيل ويعقم المغاسل أو يتوجه إلى البستان لأمر لا يخطر على بال أحد منا في الدير؛ كأن، مثلما وقفت عليه مرة، يتحدث إلى نوار الأشجار المثمرة كاللوز والمشمش والتفاح. أو هو يبتعد نحو خلايا النحل وهناك،

من غير أن يخشى اللسع، ولم يحدث له ذلك وكان بينه وبين النحل ميثاق سلام أو هو يلبس واقيا شفافا لا يُرى، يطيل الوقوف مستمعا. هكذا يبدو.

قال لي يوما ونحن نتأهب لجني العسل:

الإصغاء لما تقوله هذه المخلوقات العجيبة بذبذبات طينها الموزعة بإتقان كأنها على سلم موسيقي زاهية راجعة داخلية خارجة من بيوتها هذه في نظام مدهش هو آية من آيات جمال الرب وسحر خلقه.

إنني لا أدري إن كان غيري في الدير رأى في ميشيل راهبا يحمل سرا من أسرار الدراويش المسلمين. فهو مثلهم يستقيل، بين حين وآخر، عما حوله ومن معه. فما همَّ افتقار ولا اشتكى من مرض، حتى وهو متوعك؛ فابتسم أو ضحك، مغالبا أمره، كما لما فحصه الأخ لوقا مرة، بينما أنا حاضر في عيادة الدير، وطلب منه أن ينزل إلى مستشفى المدينة من أجل إجراء أشعة على قفصه الصدري، فرد بأنه في تمام عافيته. وراح فقام بحركات تجاه وجهينا تباعا، مثل ملاكم في حلبة. فضحكنا.

فلطالما وجدت الأخ ميشيل راهبا لا يصنّف. فهو روح الإنسان الذي تمنيت أن أكونه. إنه يُرى وكأنه لم يلحقه من هذه الدنيا عنت فما انشغل بأي مصير.

كالنحلة لنا أجل نقضيه بلا همّ لأننا خلقنا لنعمل ونصلي كي نموت، كان أضاف ونحن نفرغ من جني العسل.

يومها، صعقني أنني فكرت: وماذا لو لم تكن هناك حياة وإن وُجدت كما هي حياتنا لا كان بعدها موت!

فبرعشة في اليد فتحت دفتر يومياته. وكما توقعت وجدته غير مختلف في ما خطّه، عما كانه، بهذه البساطة التي تعطي روحه جمالا.

تَيْبُجِيرِينُ. أَغْطَسُ، أَلْفُ وَتِسْعَمِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَتِسْعِينَ.

أُمِّي الْغَالِيَةِ.

لِيَطْمئنَ عَلِي قَلْبِكَ السَّلِيمِ الْعَطُوفِ. أَمْسَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَغْطَسُ صَادَفَ ذَكَرِي نَزُولِي، عَامَ أَلْفٍ وَتِسْعَمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَثَمَانِينَ، فِي دِيرِ سَيِّدَةِ الْأَطْلَسِ الْوَاقِعِ فِي تَيْبُجِيرِينُ التَّابِعَةِ لَوْلَايَةِ الْمَدِيَّةِ، إِحْدَى مَدَنِ هَذَا الْبَلَدِ الْجَمِيلِ بِطَبِيعَتِهِ الْمَتَنُوعَةِ السَّاحِرَةِ وَبَحْرِهِ ذِي السَّاحِلِ الطَّوِيلِ وَمَنَاحِهِ الْمَعْتَدِلِ وَأَهْلِهِ الطَّيِّبِينَ. وَهُوَ الْيَوْمَ الْمَصَادِفِ، وَيَا لَهُ مِنْ حَظِّ لِي، الْإِحْتِفَالِ بِيَوْمِ الْقَدِيسِ أَوْغْطِطِينَ. هَلْ تَذَكَّرِينَ؟ أَخْبَرْتَنِي عَنْ كَوْتِيرِي، قَرِيَّتِي الصَّغِيرَةِ الْحَبِيبَةِ وَمَرْتَعِ طِفُولْتِي هُنَاكَ فِي سَانْتِ أَنْ، كَيْفَ حَالِهَا وَحَالِ نَاسِهَا الْفَلَاحِينَ. أَعْرِفُ أَنَّكَ لَا تَزَالِينَ، وَقَدْ بَلَغْتَ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ وَاحِدًا وَخَمْسِينَ عَامًا، تَرِينِي مِيشِيلَ الصَّغِيرِ الَّذِي هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رِعَايَتِكَ. سَأُظَلُّ لَكَ كَذَلِكَ أَبَدًا. وَلِتُصَلِّيَ مِنْ أَجْلِي.

ابْنِكَ الَّذِي يُحِبُّكَ بِدَرَجَةِ حُبِّكَ إِيَّاهُ. مِيشِيلُ.

لَمْ أَزَعْجِ سَلَامَ أُمِّي وَلَا رَاحَتَهَا النَّفْسِيَّةَ، لِأَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ، كَأَنَّ أَثِيرَ لَهَا أَنِّي إِذْ أَسْتَرْجِعُ الْآنَ، فِي ظِلِّ هَذِهِ الضَّرُوفِ الْأَمْنِيَّةِ الْمَقْلُوقَةِ بِسَبَبِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ الدَّائِرَةِ الْيَوْمَ مِنْ حَوْلِنَا، عِلَاقَتِي بِالْأَحْدَاثِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي تَحْوِيلِ هَذَا الْبَلَدِ، أَجِدُ أَنِّي كُنْتُ طِفْلًا فِي الْمَدْرَسَةِ لَا صِلَةَ لَهُ بِحَرْبِ الْجَزَائِرِ، وَلَا مَسْئُولِيَّةَ لَهُ فِيهَا. كُنْتُ فِي سَنِّ الْعَاشِرَةِ لَمَّا انْدَلَعَتْ وَفِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ إِذْ انْتَهَتْ بِاسْتِقْلَالِ خَلْفِ جَرْحًا عَمِيقًا فِي نَفُوسِ مِليُونِ فَرَنْسِيِّ مِنْ الْأَقْدَامِ السُّودَاءِ وَالْأُورُوبِيِّينَ كَانُوا غَادَرُوا الْبَلَدَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ تَارِكِينَ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا بَنَوْهُ فِيهِ وَعَمْرُوهُ وَمَلِكُوهُ.

لِأَنَّ نَزْعَةَ التَّفُوقِ غَرَّتَهُمْ إِذْ رَفَضُوا عَرْضَ حُكُومَةِ الْاسْتِقْلَالِ بِأَنَّ يَبْقُوا عَلَى أَرْضِيهِمْ وَفِي أَمْلَاكِهِمْ بِصِفَتِهِمْ مَوَاطِنِينَ تَحْتَ سُلْطَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَدِيدَةِ مَتَوَهِّمِينَ أَنَّهُمْ بَرِغَمَ خِيَانَةِ الْجَنْرَالِ لَهُمْ سِيرَجَعُونَ يَوْمًا لِيَسْتَعِيدُوا بِالْقُوَّةِ فَرُدُّوهُمْ الْمَفْقُودَ.

كذلك قال لي أبي يوم وصول أول عائلة إلى قريتنا في كوئيري لا تحمل سوى حقائب
بائسة لتقيم عند الأقارب.

في ذلك الصيف، كنت بلغت سن الثامنة عشرة تماما. غير أنني لم أكن قد استوعبت بعدُ
تفاصيل ما حدث. ولا كنت قدّرت درجة التمزق التي حصلت. كان لا بد من أن تفوت أعوام،
انشغلت خلالها بما هو عمل فلاحى مع أبي ولا سيما برغبتي في أن أصبح راهبا فدخلت
أول معهد لاهوتي في الثانية والعشرين وفي السابعة والعشرين التحقت بمعهد يُرادو، قبل
أن أكتشف من الأخ برينو، الذي هو بشكل ما معلمي في درس تاريخ هذا البلد لمعرفته،
أكثر من غيره ممن ربطتني بهم علاقة هنا في دير سيدة الأطلس، مراحل الاحتلال وما
خلفه وما كان سينجم عنه في نهاياته وما أعقبه.

فمع الأخ بيرنو، ومثله مع بقية الإخوان في الدير، عشت البدايات المنذرة بانهيار اقتصادي
 واجتماعي لم تنجم عنه فحسب بطالة قاسية نتيجة التسريح القسري، في الانتقال من
نظام اشتراكي موجه إلى انفتاح على العواهن، ولكن أيضا ظهور قوى دينية متطرفة في
مواجهة سلطة عسكرية ذات قبضة حديدية كانت ستؤدي إلى هذه الحرب الأهلية العبثية.

قلبي يعتصر إذ يعاودني الإحساس بما يجري خارج الدير من اقتتال فأبحث، لأخفف عن
نفسي نصيبا من ضغطها، عما يشغلني لوقت مهما يكن بسيطا وبلا جدوى، كما يظهر. وفي
الواقع فإنني أهفو إلى طريق للفرار ليس من الهلع ولكن من هذا الذي يقلق روحي فلا أجد
له مخرجا. هل يمكن للتسلية، ولكن بماذا، أن تكون بديلا؟ لا أدري.

البارحة، عقب صلاة الليل الأخيرة، قبل التحاقنا بغرف نومنا، كنت تظرفت للأخ لوقا، لأنه
سبقني إلى التكفل بالمطبخ.

أنا الشيف هنا، لأنني أحمل شارة الشريط الأزرق، وأنت الخادم.

أليس خادم الرب هو خادم خلقه، رد بصوته المبحوح قليلا بفعل آثار ربوه الذي لا يزال يلازمه وقد بلغ الثانية والثمانين.

ثم استوقفني في الرواق المؤدي إلى غرف النوم واضعا راحته على كتفي، فأحسست مثل هبة دفاء سرت عبر بشرتي. وقرب مني وجهه الذي زينته مسحة أرجوانية غريبة وكأنه كان ينزل من سماء علوية في تلك اللحظة. وهمس لي، مغالبا أن لا تقطعه نوبة سعال:

ميشيل. هل تعتقد أننا أدينا، كل من جانبه، ما يرضي الرب عنا منذ التحاق كل منا بهذا الدير على فترات متباعدة أو متقاربة؟

لا أذكر أن الأخ لوقا فتح لي قلبه على حين فجأة، أو كنت أنا فاتحته، على أمر الموت. كان يعرف، كنت أدرك ذلك، أنني استوعبت انشغاله الذي لم يكن موجهها إلي بالأساس بقدر ما كان ملقى نحو ربنا نفسه. فإن النبوة والنظرة اللتين بهما أخرج عباراته كانتا تحملان رغبة، ليس في التخلص، ولكن في الإمساك برأس خيط طمأنينة على أن ما سبق، كله أو أغلبه، من أفعال، كان تكفيرا عن خطاياها، خطايانا نحن جميعا.

وكما في استدراك، أضاف:

يوم يدعونا الرب إليه ستكون أجسادنا تطهرت تماما.

وبينما فك يده عن كتفي في ارتعاش خفضت نظري حياء من وجه بدا بنور القديسين.

مذ عرفتكَ، أخي لوقا، هنا في تَيْبَحِيرَيْن، لم أرك وليت وجهك إلا إلى الرب وما يسعد خلقه من حولنا.

فتنهده. وبرفق، دفعني في ظهري أمامه نحو غرفة نومي من دون كلمة.

في سريري، لم أخلد إلى النوم إلا بعد أن فتحت هذا الدفتر فتخلصت من هذا الهاجس الذي استحوذ علي «إذا ما حدث لنا مكروه، وأنا لا أتمناه، فإننا نبغي أن نعيشه هنا مع جميع

هؤلاء الذين يدفعون حياتهم متضامنين معنا نحن الغرباء الأبرياء».

لماذا كتبت ذلك في تلك الليلة! كان الأمر يبدو قد خرج عن التخمين والحدس إلى واقع مؤلم وحقيقة مرّة، قاسية ومرعبة بفعل الحصار الذي صار مضروباً من حولنا، هنا في دير تيبجيرين.

قلت للأخ برينو وأنا أساعده في المكتبة على إعادة ترتيب بعض رفوفها خلال حديث بيننا عن مذبحه تمزجيدة:

كيف لا يخاف مؤمن أن يموت موتة عنيفة.

فرد:

نزعة البقاء حقيقة لا يجحدها أحد. ولكن لسنا نحن الذين زرعتها في نفوسنا. ففي أعماقنا تجري تحولات لا ندرك لها سرا. ومن منا لا يبغى أن يطول به العمر. كل البشر لا يعجلون إلى موتهم إلا من يخالفون إرادة الرب بقتل أنفسهم.

فقلت:

وددت لو يطول بي العمر حتى أبتلى مثلما ابتليت أنت فأتقرب من الرب أكثر.

فاكتفى الأخ برينو بأن هز رأسه، كأنما ليصدّق على أمنيّتي، وهو يمسك من يدي آخر كتاب ليضعه في مكانه من الرف.

لأنني عملت في مزرعة العائلة فغرست وجنيت وعالجت الحيوانات كبيطري برغم أنفي، كان يمكن لي أن أكون فلاحاً. لكن قدرني أراد لي أن أشغل في مصانع التعدين فكنت أقرب إلى العمال ومن الحركة النقابية في مرسيليا منه قربي إلى الرب؛ إذ ثمة عرفت اليد العاملة المغاربية التي لم تكن لها حقوقنا، نحن الفرنسيين، فكان يثيرني التمييز بين أبناء آدم وحواء. وكنت أقرأ بيانات النقابة فأتحمس لها وأخوض الإضرابات التي تندلع بين وقت

وآخر؛ آخرها كان هذا الذي دام اثنين وخمسين يوما، وهي المدة التي سنحت لي بأن هربت إلى نفسي من صراع بدا لي غير متكافئ بين عمال، لا يملكون سوى عرقهم ولا يَحْتَمون إلا بصدورهم العارية، وبين إدارة صاحبة قرار تدعمها سلطة الدولة وتسندها قوى الأمن التي كانت تُستدعى لضرب الحصار من حولنا أو تفريقنا بالقوة أو قيادتنا إلى المخافر.

في خلال ذلك، كان هناك شيء يحدث في ضميري يزيدني رغبة متجددة في الهروب من واقع متشنج وأسود سواد انبعاثات الدخان من فرن المصنع الذي كنت أتخيله جسما متفسخا نحن العمال ديدانه. ثم إذا بي، في نهاية الإضراب، أسمع صوتا من أعماقي ناداني.

ألم تقطع لأمك عهدا بأن تصبح راهبا وبأن لا تترك الإنجيل فتحمله معك حيثما حللت؟

كان يمكن لي أن أصير نقابيا، بلا شراسة، أو أنخرط في حزب اشتراكي أو شيوعي أيضا، بلا قناعة، كالمئات غيري ليجدوا عند الضرورة من يحامي عنهم وعن مناصب عملهم. في تلك الأعوام التي تلت خروج فرنسا من هذا البلد منهزمة كان كل شيء يدعو إلى ثورة تغيير لما اندلعت في باريس عام ٦٨ كنت بعيدا عنها زمنا ومسافة فلم أكن أستاذنا في ثانوية ولا طالبا في جامعة.

إن هو إلا قدرٌ أن قادني هروبي من ذلك الصراع، الذي هو في أصله وحقيقته صراع طبقي، إلى كتاب الإله المقدس فصرت أقرأ الإنجيل أكثر من أي قراءة أخرى لي كنت أتيتها مع الصحف أو الكتب الأخرى. حتى إذا تأملت حالي وجدت أنني كنت أحييا مثل وثنني.

كانت غبطة استثنائية تلك التي غمرتني لما دخلت كاتدرائية مرسيليا «السيدة دو لاغارد» المشرفة على المدينة، مثل أم لا تغفو لها عين عن أبنائها! فقد تخيلتها أُمي التي هاتفتها من كَشك تليفون في الشارع.

أنا أخرج الآن من «الأم الطيبة» كما خرجت من رحمك.

طوبى لابني.

تذكرت ذلك وأنا هنا في دير سيده الأطلس فكتبت لها هذا:

أمي الغالية. اطمئني. فقد طويت صفحة ماضي. ورجعت إلى إلهي. وأنا أقيم صلاتي. إني أحس بركة سماوية تغمرني. أمل أن أكون عند حسن ظنك وفي مستوى المهمة الروحانية التي كلفني ربنا إيها. هنا في تيبجيريون وجدت نفسي أخيرا ما ظلت تهفو إليه. أنا أحيا في سلام. ابنك ميشيل.

من غير الرب كان هداني فخرجت من دوامة الظلم والعنف والتلوث هنالك في مرسيليا إلى سيده الأطلس هنا في تيبجيريون، هذه القطعة من النعيم في هذا البلد الذي لم يقع في خلدي عنه، نظرا إلى ما عشته من قبل فيه من أمان وجيرة وطيدة مع المسلمين من أهله، أن ينتابني يوما هذا الخوف البهيمي وتحاصرني العزلة.

بعد شهرين، سيحل عيد ميلادي الثاني والخمسين ولا أدري إن كنت سأحييه مع إخواني هنا في الدير. إني أرى منذ الآن الأخ لوقا يطلبني لمساعدته في تحضير الطرطة. ولكن لم يشوش ذهني هذا الشعور الغريب فأسأل نفسي إن أنا سأبلغ الحادي والعشرين من مايو القادم وهل سأشهد، قبل ذلك، عيد الفصح في نيسان وتالياً احتفال القديس أوغسطين مع الأخ برينو، كما كان الأمر أول مرة في صيف سفرنا إلى سيده الأطلس هنا في تيبجيريون قبل اثني عشر عاما؟

لست أشكو من الشظف أو من قلة الحاجة ولا من المرض أيضا ولكن من ابتعاد جيرانا المسلمين عنا بفعل هذه الحرب الأهلية الضارية فأمست حياتنا جميعا صعبة، شاقة ومؤلمة كثيرا.

عليّ أن أذكر أنني، قبل أربعة شهور إذ أصبت بكسر في كتفي ومعصي نتيجة سقوطي من سلم تزحلق بي خلال طلاء غرفتي، وجدتني في مستشفى المدينة محاطا برعاية صادقة وودية من الأطباء والمرضى ومن الزوار من جيرانا المسلمين حول الدير، باعتباري واحدا من بين مرضاهم؛ إلى درجة أن عثمان، جاري في الغرفة، الذي كان يقاسمني ما

يأتيه به أهله من طعام وشراب، لم يتردد في أن يشير غير مرة إلى من يدخل عليه بالتزام الهدوء والصمت حين أكون أصلي أو أقرأ من الإنجيل الذي كنت أضعه على الطاولة بجانبني فلا تمسه الممرضة أو المنظفة، كما لا تمسان مصحفا. كنت أعرف في داخلي أنهما لا تفعلان إن كانت عليهما دورتهما الشهرية أو كانتا على ما يمنع عنهما ذلك. كنت أعرف ما معنى الجنابة عند مسلم أو مسلمة.

ولأن عثمان كان يؤدي صلواته الخمس في سريره، سألته يوما عن سر ذلك، لاعتقادي أن الصلاة عنده، كمسلم، لا تؤدي إلا حسب الشروط المعروفة من قيام وركوع وسجود في توجه إلى القبلة. فأجابني بأن الله يرخص له ذلك بالنية حتى وهو لا يولي وجهه شطر مكة.

وقال:

لأن الله محيط بنا من كل مكان.

فقلت:

وهو الرحيم بنا.

مثل ذلك الحوار في الحياة، بين مسلم ومسيحي، هو ما منحني طمأنينة أسعدت روحي في تلك الأيام التي قضيتها مع عثمان الذي كان تعرض لحادث مرور تسبب له في كسر على مستوى الفخذ ورضوض في الحوض.

المؤمنون بالإله خالقهم حين يلتقون في مثل حالي وحال عثمان في مستشفى هم من يعطون هذه الحياة أملا في السلام والأمن والتعايش.

كذلك كنت قلت للأخ برينو ردا على سؤاله إياي عما عدت به من مشاعر إذ جاء يطمئن علي في غرفتي خلال نقاهتي وقد كان هو وجميع الإخوان الآخرين عادوني في المستشفى

أكثر من مرة إلى أن غادرته.

ولكن ما الذي بقي لي اليوم، أمام هذه الظروف المشقية التي تحصرني وإخواني في الدير بين قوات أمن البلد وبين إخوان الجبل، غير أن أستعين بصلواتي وأقوم بمهمة القارئ نيابة عن الأخ كريستيان، لتعبه، وأواصل عملي في البستان حتى لا يهزمني خوفاً.

الأخ پول. أملاً في الصفح

غريب! فإني، للحقيقة، لم أعر على تفسير يجدر به التصديق بالنسبة إلي، غير رد الأمر إلى الصدق وربما إلى يد القدر وهو ما أميل إليه، أن يكون ستة من سبعة من الإخوان خدموا في الجيش الفرنسي مجتدين باستثناء الأخ ميشيل؛ ومن الستة أن يكون الأخ كريستوف أدى خدمته العسكرية ضمن السلك المدني في الجزائر بعد استقلالها، وأن يكون الأخ لوقا أداها طبيبا عسكريا في جنوب المغرب خلال الحرب العالمية الثانية، وأن يكون الأربعة الآخرون، وهم برينو وكريستيان وسيلستان وپول، أذوها مقاتلين، هنا في هذا البلد ضمن صفوف الجيش الفرنسي خلال حرب الجزائر، لتجمعهم يوما سيده الأطلس فتضمهم أرض تبيحيرين إلى الأبد!

إذ أعرض ذلك هنا فإني أدرك أنه ليس من حقي كإنسان، ولا هو من أخلاق راهب مثلي، أن أزعم إصدار أي حكم، أيا كانت طبيعته، على حياة الإخوان السبعة إلا ما تركوه أثرا وجدت نفسي تجاهه ملزما بأن أذيع بعضه على العموم؛ لا سيما منه هذا الذي له صلة بالديانة المسيحية في دار الإسلام وبالحوار المباشر ضمن الصداقات أو عن بعد بالكتابات أو عبر جسر، ولو كان من دم وألم، يمد للقاءات من أجل السلام؛ لِمَا له علاقة بهذه الأرض وباحتلالها وبإنسانها وبال حرب فيها؛ باعتبارهم هم السبعة، وقد صاروا اليوم طوباويين، الذين كانوا سيضيفون إلى سجل تاريخ هذا البلد صفحة أخرى مكتوبة بدمهم شهادة على تحوله في الألم وبالألم.

بول، وهو آخر الملتحقين بسيدة الأطلس في ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين، إن كان هناك شيء ميّزه من بقية الإخوان فهو اتقاد حماسه البدني الذي أقدّر أنه يأتي من بيئته الصلبة ومن ميله إلى المغامرة، بدرجة أرفع مما كانت عليه ميول الأخ كريستوف إلى ذلك، ويكاد يغطي على جيشانه الديني إن لم يكن يستهلكه.

أخي بول. شخص مثلك على هذه الهيئة لم يخلق للأديرة.

كذلك تظرفت له ذات مرة إذ رافقته في إصلاحه عطبا في سخان التدفئة المركزية. وكان نازعا عنه ثياب الراهب لابساً صدرَ نصفِ كُم، تبرز منه عضلاته، وسروالا من نوع دجين مثل ميكانيكي داخل غواصة.

ولأي شيء أصلح، أخي أميدي؟

للمبارزة والقتال السلميين، طبعاً.

فضحك ملء حنجرتة ضحكة هي التي كانت ملأت سمعي، هنا في فراغ مكتبة الدير، وأنا أوزّق دفتر يومياته الحميمة، متخيلاً صلغته المشرقة، كسيل ساقية بين ضفتيها المعشوشبتين، ووجهه الواضح وعينييه، كما عهدتهما متوقدتين تأهباً، وشفتيه القلقتين تنطقان لي أن اسمع بول الآخر غريب الأطوار إذ يقول.

ولدت قبل الحرب العالمية الثانية بخمسة شهور. لذلك لا بد من أن أمي تكون أرضعتني حليبها ممتزجا بما تفاعل بكيمياء جسدها من رعب تلك الحرب وفضائعتها. ولا شك في أن تديها اهتزا لدوي انفجارات القصف الأولى وفمي عالق به مثل قُرادة. وبالتأكيد فإنها، مثل أبي، رأت في الجرائد صور هتلر يرفل أمام قوس النصر في باريس.

ولكن كيف انصرم على ميلادي نصف قرن كامل قبل أن أصل إلى تيبجيرين. وقد كان يمكن لي أن أزور ديرها، كما زرت منسك الأب دو فوكو في صحراء تَمْنَراسْتْ هنالك في الهگَار،

ولو مرة واحدة على الأقل بين عامي العشرين والثاني والعشرين، وهي المدة التي قضيتها في الخدمة العسكرية مجندا ضمن فيلق المظليين، فلم أفعل!

بالرجوع إلى شهور خدمتي العسكرية الثمانية عشر، لا أطمئن إلى أنه كان من الصدفة أنني وجدت نفسي مظليا؛ وهو أخطر سلك وأشرسه وأشدّه قتالية في جيش نظامي كان يواجه ثورة مسلحة، هنا في هذا البلد. لعله كان، بل هو أمر مؤكد، بروزي خلال تدريبات مسار المحارب على قدر معتبر من التحمل؛ فأنا جبليّ ومن عائلة مسيحية تشتغل بعضلاتها.

ولكن قبل ذلك، فأنا جئت إلى هذه الدنيا ابناً لأب، حرفته الحدادة، ذي قوة جسدية صلبة طالما فتنتني إذ كنت أدخل عليه في الورشة فلم تجذبني فحسب حركة إخراجهِ بالملقط قطعة الحديد اللاهبة من فرن الفحم الحجري ووضعها على السندان وطرقها بإيقاع واحد ونصف طرفاً ثم معاودته غمر تلك القطعة في دلو الماء على يمينه فيتصاعد البخار مع انبعاث رائحة الشياطين، ولكن كان يجذبني منه أكثر عضلات ذراعيه المفتولة وعرقه البارز عليهما المتقاطر قطرة قطرةً عبر أنفه نازلاً من جبهته المسودة بالهلام، وكذا صدره العريض المفتوح عليه مئزره الأزرق الذي برقعته بالأسود ذرات الحديد وآثار يديه عليه؛ مثل مئزر أمي الأبيض في المطبخ بما علق بيديها وهي تنتف ريش دجاجة مغمورة في الماء الساخن لتحضير الغداء أو هي تمدد بكفيها قطعة عجينة الحلوى.

قد لا تكون أمي اختارها أبي زوجة، فأكون بكرهما، إلا لقوتها الجسدية هي أيضاً. ففي أمي خيط لا يخفى من الترجل. وذلك ما جعل منها امرأة تهابها النساء. فيا ويح امرأة اقتربت من أبي! فقد رأيتها بعيني مرة أسقطت واحدة أرضاً بصفعة قوية عند خروجنا من الكنيسة. ويا لعنة تحل على رجل حاول التحرش بها! فإنه كان شاع في القرية كلها وما جاورها وفي مصنع الأسمنت نفسه كيف عالجت هذا العامل بنطحة أسقطته أرضاً ثم بالت عليه، لأنه راودها وهو في حالة سكر.

أمي كانت تقضي نصف يومها صباحاً في البقالة، عدا الأحد الذي تأخذني في صباحه إلى القداس، ومساءه في الحانة المرفق بها مطعم يرتاده غالباً عمال مصنع الأسمنت في

ضاحية القرية. إن لم أكن ملت إلى عملها، لأنني كنت أجده بسيطا محصورا بين الجدران ومقصورا على زبونية تكاد لا تتبدل، فإنه استهواني عمل أبي الشاق فكان هو ما قادني إلى حرفة السباكة التي حزتها من مركز التكوين المهني، لأنها لم تكن بعيدة ولا مختلفة كثيرا عن حرفة الحدادة. فأنا وأبي كنا نتقاسم الاشتغال على المعادن الصلبة وتطويعها. أيكون ذلك هو ما أغلظ قلبي أيضا تجاه من كنت أقاتلهم في حرب الجزائر؟

ولعله لأنني أحمل من أبي صلابة عظامه ومن أمي جسارتها، كنت وُجِهت في نهاية تدريبي خلال خدمتي العسكرية إلى فرقة المظليين؛ القوة محمولة جوا التي كان يرمى بها في مواقع القتال ضد جيش التحرير في البلد. كنت واحدا من المظليين في سن العشرين، عمر ذروة التحفز إلى المغامرة.

كان لي، كأنما بقدر، أن لا أبلغ الدراسة الثانوية ولا أن أدخل الجامعة. فمساري التعليمي قد توقف مع نيلي الشهادة الابتدائية. وبرغم ذلك تمت ترقيتي خلال شهور خدمتي العسكرية الثمانية عشر إلى صف الضباط برتبة ملازم ثان. كان ذلك لبلائي في المعارك وفي الاشتباكات.

حرب الجزائر - بالنسبة إلي، كانت نوعا من المغامرة أحببت أن أخوضها وأن أعيشها فعلا. فخلالها اكتشفت شمس هذا البلد وشساعته واقتران فصلي الشتاء والصيف فيه؛ إذ بهرني منه أنني كنت أقدر أن أخرج من منطقة شمالية، كما في جبال المدية أو البليدة، وسط درجة حرارة تبلغ العشر أو أقل لأدخل منطقة جنوبية هنالك في الصحراء فأجد نفسي تحت حرارة تبلغ الثلاثين أو أكثر؛ مثلما إذ كنت زرت، خلال عطلة عسكرية شتوية لمدة أسبوع، كلا من كنيسة جنان الباي في مدينة بسكرة ومنسك الأب شارل دو فوكو في تْمْنْرَاسْتْ بمنطقة الهگار.

لا أنكر أنني في حرب الجزائر قاتلت بصفتي عسكريا أعدّ لذلك. وكنت ضمن فرقتي، التي كان يقودها ضابط من ضباط الجنرال ماسو في مدينة الجزائر، غالبا ما أضطر إلى استعمال وسائل غير شريفة، إذ لا حرب تخلو منها، في الاستنطاق عندما يتطلب الأمر

انتزاع معلومات من أسير حرب أو من أحد المتعاونين البارزين مع جبهة التحرير من
الفدائيين. إنني أخجل من ذكر هذا هنا. ولكن لا مفر. وإنني لأشعر بألم الخطيئة يعاودني.

لما كنت عدت من خدمتي العسكرية إلى قريتي قلت لقس كنيستها:

أرجو أن تسمعني لتخفف عني بعض عبء الحمل الذي يضيق به قلبي ويتعذب له روحي.
افتح لي صدرك. إنها مرة أولى وأخيرة. لا أجد كيف أطرد بقايا الشر من قلبي.

عم تتحدث؟

عما فعلته خلال الحرب.

فسألني إن كنت أريد أن أعترف بشيء آخر غير حرب الجزائر. فقلت كلا. فهمس لي أن
ذاكرته هو أيضا مكلومة. ثم اعتذر لي وغادر إلى الداخل.

يوم قتلت أول مرة، تحت إمرة ضابطي، أحد الفلأگة برصاصات فجرت رأسه مثل بطيخة
لرفضه وضع سلاحه بعدما حوصر خلال اشتباك، أصابني غثيان وتقيأت ما في أمعائي. وإذا
طعنت آخر في القلب خلال التحام، بعد نفاذ الذخيرة، فشقق وأمسك بيديه معا على كتفي
كأنما ليعانقني، أحسست دوارا وقعت إثره تحته. ثم، وهو جثة هامدة، أزحته جانبا وبكيت.
كانت تلك آخر مرة قتلت فيها جزائريا في الحرب لصالح فرنسا.

وأنا اليوم، هنا في تيبجيرين بدير سيدة الأطلس، أسترجع ذلك فيتألم منه روحي، أجدني
عاجزا عن إعلان ندمي جهرا أمام ذاكرة من تورطت في قتلهم أو تعذيبهم. ليتني، فحسب،
كنت أعرف كيف أفعل أمام أهلهم. إنني أسأل قدرتي لماذا شاء لي أن أقتل بعد أن كنت خلال
حياتي السابقة شخصا مسالما؛ فقد تجنبت على الدوام إيذاء أي حي في هذه الدنيا. وكنت
سائرا نحو أن أصير نباتيا. هل لأن الإله في الحرب يتخلى عنا!

مرة، ونحن عائدان من البستان بعد أن استبدلنا أنابيب سقي بالتقطير تهرأت بأخرى جديدة، تشاكييت للأخ أميدي، على صعقة جديدة من الشعور بالذنب عاودتني لرؤيتي الراعي مرزوق يسبقنا نحو باب الخروج وكأنه أحد ضحايي يهرب مني:

ما الذي أخرجني في العودة إلى هذا البلد إلى عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين؟

ولكنك عدت. وها أنت فوق ترابه في جبة الراهب.

ما رأيت أحمد لمين أو مرزوق أو واحدا آخر ممن يتعاونون معنا أو غيرهم من جيراننا المسلمين إلا أحسست جلد المظلي الذي كثره يضغطني.

هل رأيت في وجه أحدهم أمانة حقد عليك؟

لم أستطع يوما أن أواجههم عينا بعين.

لأن الخجل مفتاح باب التوبة.

تمنيت لو أنني التحقت بكم هنا سنين من قبل، لأن هذه الحرب الأهلية التي تمر عليها اليوم أربعة أعوام لم تمنحني طمأنينة النفس لأتطهر نهائيا من خطاياي.

قدرك، أخي پول. لا شيء غيره. فمساراتنا كلها أقدار لا نقاد إليها بإرادتنا حتى ولو توهمنا أننا فعلنا كذا وكذا لنحقق كذا وكذا أو لنبلغ ما خططنا الوصول إليه، لأننا مجرد جزيئات سابحة في كون الإله اللامحدود توجهها إرادته.

تماما، قلت فحسب متشربا حكمة الأخ أميدي.

برغم ذلك، وجدت خلال صلاتي الليلية أنه ليس حظا بل عناية هو وصولي أخيرا إلى تيبجيرين، آخر مكان لي أخلو فيه إلى نفسي بعيدا عن ضجيج المدن وسراباتها ولذائذها وشهواتها، يهددني أمل في أن سيدة الأطلس تمنحني مزيدا من الشعور بأنني سأكفر ولو

قليلا عن خطاياي التي اقترفتها على أرض هذا البلد. إنني أعترف أن ضميري لن يفتأ يعذبني.

كيف تقتل إنسانا خلقه الإله مثلك نسلا من آدم وحواء؟

لأن الأوامر العسكرية صورته لي عدوا.

لن أنكر أنه كان لي نصيب من القتل في المعارك والاشتباكات التي شاركت فيها، حسب إحصاءات كانت وسائل الدعاية تُعدّها. لا أعلم إلى اليوم عددا. لكنه لم يكن يخفى علي عدد الذين قضوا تحت التعذيب في فرقتنا أثناء خدمتي العسكرية. إنني أحس رعشة في الجلد وحرقة في الحلق إذ أقول على الأقل ثلاثين خلال الححص التي حضرت منها حوالي الخمسين. كان القائد يقول لنا إن حصة استنطاق لا تنتهي بإلحاق أحد العرب بربه لا تحتسب. هكذا، بهذه اللغة. لذلك، لا أحد منا كانت لا تثور فيه، تحت تأثير الخمر والموسيقى الصاخبة، نزعة حيوانية ضارية تُعمي عن رؤية من هو أمامك إنسانا وهو يصرخ من ألم الصعقات الكهربائية في أعضائه الحساسة أو يتلوى من الرفس أو يئن لنهش الكلب ذراعيه وساقيه وأحيانا جهازه التناسلي أو هو يشهق شهقاته الأخيرة إثر إخراج رأسه من حوض الماء الممزوج بالبول والبراز. كان قائد الفرقة، قبل أن نصل إلى هذه الدرجة من الوحشية، هو من يجبرنا على حضور حصصه. كان يسميها فترات التفريغ.

هنا ومعهم، وهو يقصد المقبوض عليهم، تتخلص من خوفك منهم. وهنا تُكسب قلبك صلابة الحجر. وهنا تتعود على أن قتل العدو في حرب هو فعل عادي روتيني لا يثير. ولا تهم الطريقة. كذلك كان يقول لنا ببرودة أعصاب ثلجية.

فحيثما كنت هربت بروحي إلى سويسرا، إنكلترا، روما والفاتيكان نفسه، بعد عودتي إلى الحياة المدنية، طلبا لاستراحة، لاحقتني أشباح أولئك الذين قضوا تحت التعذيب فصعدت قمم الپيريني حيث قسوة البرد وقلة الهواء وضغط الارتفاع ومارست رياضة التزحلق على

الثلج وقدمت خدمات اجتماعية وأنقذت أرواحا بمنح دمي فلم أتخلص كل مرة من صورهم فتأرقت وتغثت وصرت على بعد خطوة من دخولي نفق الانهيار.

ثم ها عين الرب نظرت إلي بعطف، لما عاينته علي من شقاء، فصرت أرى مثل شعاع ضئيل من رحمته أضاء ظلمة روعي فاطمأن قلبي شيئا فشيئا. وأمسى جسدي، بعد عذابه، يصغي إلى ندائي: «أنا مستعد للفدية». وسمعت هاتفا: «خذ الإنجيل تجد طريقك». فأخذت الإنجيل وبكيت وأنا أقرأ.

«فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب».

«لأن الرب إلهكم حنان ورحيم، ولا يحول وجهه عنكم إذا رجعتم إليه».

ثم رددت ألف مرة: «لا تقتل أبدا». وصلت. وها يده تقودني إلى دير سيدة الأطلس، هنا في تينجيرين، حيث قدمت اعترافي إلى الأخ أميدي فهدا من روعي.

هنا في هذه الأرض ستجد دائما السلام ومن أهلها الضيافة فهم أصحاب دين سمح.

لم ينتبني شك في قول الأخ أميدي. ولكني آليت على نفسي أن لا أقابل جيراني المسلمين إلا لضرورة، مثلما هي الحال مع الحارس أحمد لمين ومن يتعاونون معنا في الدير في الزراعة والجني وبيع المنتج. كنت أبغي أن لا أنتكس. الإخوان في الدير يتفهمون حالي. وهم لا يسألونني إلا عما له صلة بالسباكة ونظام السقي وإصلاح الأعطاب.

ففي الدير، هنا، يعرف بعضنا بعضا إذ لا شيء يخفى إلا ما تحت الجبة. ذلك لأن لكل منا تاريخه وماضيه الشخصي. وكل منا يعرف عن غيره قليلا أو كثيرا مما لا يبوح به أو يعترف.

أنا على يقين، قلت للأخ أميدي، بأن أرشيف خدمتي العسكرية لا يحمل أثرا لصور قتلاي ولكن ذاكرتي هي التي دونتها لأحملها معي إلى قبوري.

أخي يول. في حياتنا خطايا تسببنا فيها لأنفسنا أو لغيرنا أو غيرنا تسبب لنا فيها، برغم حدثها أو قسوتها أو فظاعتها، لا يمكن أن لا يشملها غفران. فإنه يكفي أن نخلص المحبة للإله حتى يمحوها كلها.

وسط هذه العزلة القابضة علينا في الدير الحاصرة إيانا بين فكي كلابة جيش البلد ومجموعات إخوان الجبل المسلحة، أذكر أني حدثت نفسي، يوم نزلت أول مرة إلى مدينة المدينة لاقتناء أدوات ومعدات لإعادة تجهيز الدير بالتدفئة المركزية، كيف أن تكون تبيجيرين انتظرت قدومي، بعد سبعة وعشرين عاما من استقلال هذا البلد، لأجدد أنا قنوات المياه وربطها ومدّها وأرّكب نظام سقي للأرض المخصصة للزراعة وللستان. لماذا أنا؟

أشعر بأنني على وشك أن أفقد أمانني في تبيجيرين الأمان. وكأنه لم يعد في الروح بقية لأقاوم في ذاتي شكوكي وقلقي وخوفي في هذا البلد الذي يقطع أهله، ونحن معهم، مرحلة مظلمة ومؤلمة بفعل هذا التطاحن القتالي الذي لا يميز بين بريء وبين غيره. أنا المظلي سابقا أعلم شيئا عن شراسة الطرفين المتقاتلين معا.

كم رغبت إذ عدت إلى هذا البلد في أن أحبه وأنا في جبة الراهب!

لكن مهما يكن فإن روعي سيصعد سعيدا نحو أبنينا الذي في السموات لو ضمنني يوم مماتي تراب تبيجيرين!

عندها، ألتقي هناك قتلاي ومن ظلمتهم لأركع عند أقدامهم طلبا للصفح.

SAS (2)

(3) «لو كنت تعرفين عطاء الله» مقطع من شعره مكتوب هكذا بالعربية.

الفصل الثالث: سبعة رؤوس طوباوية لثراب تِينِحِيرِينْ

جون - پيار. كانَ معي ولم يَغْذ

البارحة، إذ زرت الأخ جون - پيار في غرفته لأطمئن على حاله وجدته أكثر اكتئابا مما كان عليه منذ أن عدنا إلى الدير فأمسينا وحيدين فيه مثل فأري كنيسة، كما عبر لي عن ذلك بمرارة سوداء.

وقال:

لقد ذهبوا جميعا. ما جدوى بقائنا بعدهم.

ثم رفع من طاولة سريره الكتاب المقدس في وجهي، بينما أنا أقابله على كرسي.

إن كان هذا كتاب الرب فماذا نفع؟

أخي جون - پيار. ليس بأيدينا أن نذهب أو نبقى. وليس بإرادتنا جئنا فعمرنا هذا الدير بكلمات الإله.

لم تصدر عنه إشارة. أعاد الكتاب بحركة آلية إلى الطاولة وألقى ببصره في الفراغ، قائلا بنبرة تحسّر.

ليتنى وجدت كيف أنسحب من هذا العالم إلى حيث لا إنسان.

وهو يرجع نحوي رشقني بنظرة ملتبهة:

الإنسان وحش.

وسألني:

لماذا يقتل؟

لم أجب. فإن فزعا غريبا استولى علي.

قال، بعصبية:

الضع يملك الإجابة. الذئب أيضا.

أخي جون - پيار. لم نعد نملك لبعضنا سوى قلوبنا. أنا في كامل لياقتي النفسية لأن أستمع لقلبك.

فقد فأت على صمته لحظات قام خلالها وقعد على حافة سريره لا ينظر إلي، وكأنني غير موجود، وشبك أصابع يديه وفكها وعقفها إلى داخل كفيه وبهما حك على خديه ثم وضع إحداهما على جبينه والأخرى على فمه وتنهد أكثر من مرة مسارعا أنفاسه. وأخيرا حل حزامه فوضعه بجانبه وقام حافي القدمين.

سأخلع هذه الجبة عني لأنها تلوث بما فيه كفاية.

وفي حين رفعت يدي فتحركت شففتاي لأهدئه كان سلخ عنه جبته ورماها فوق السرير فلم يعد يستره سوى صدره وسرواله الداخلي الطويل من اللون الأبيض، مثل سجين. ونشر نحوي ذراعيه أفقيا، كأنه سيؤدي حركة جمباز.

ها أنا. وهذه حقيقتي. لا شيء بدون الجبة.

معك حق. لو كانت الجبة درعا لشفعت لإخواننا السبعة.

لم يولني انتباها. التفت عني، مرتحل الحركة والنظرة والذهن، متخليا لي عن جسده كشيء مثل سريره؛ فتوهمت سماع تراتيل الإخوان السبعة متخيلا إياهم ماشين في الرواق وبأيديهم، للمذبح، ست شموع وزهرة. ثم ها صوت الأخ جون - پيار يعيدني إليه على وقع كلماته الحية الشجية الذاهبة بي من غرفته المقهورة، وسط ديرات مهجورا، إلى ماضيه؛ ماضي أنا وماضينا جميعا في هذا البلد. في تيبجيرين.

لم أعد مسيحيا ولم أصر مسلما. كنت فرنسيا فهل أصبحت جزائريا. أنا بلا هوية، مثل جدي الأول الذي دخل هذا البلد غازيا فمات فيه بلا هوية ولا شاهدة قبر. نعم. أنا راؤول سيباستيان، كما هو اسمي الحقيقي، أحد أحفاد الكاردينال لاقيجري، من سلالة الذين أذلوا شعب هذه الأرض مدة قرن واثنين وثلاثين عاما بوحشية وجشع وأنانية تقتيلا وإبادة وتدميرا لبيوتهم وهدما لمدارسهم وتحويلا لمساجدهم وتبديلا لدينهم وحظرا للغتهم.

ما كان جون - پيار يبغى أن يعترف لي به حقيقةً هو ذاك الشعور الذي يعطب ذاكرته ويؤرقه. كنت أشعر بأنه يكاد يودي به إلى شفير الهوس والخرف.

واصل.

فماذا لو لم يأت جدي الأول إلى هذه البلاد غازيا أكان أهلها سيصيبهم اليوم كل هذا البلاء جراء هذا الاقتتال الجنوني؟

في الواقع، كان جون - پيار يعرّي عني أنا ما تحجبه عزة نفسي، التي هي نقطة ضعفي، ضعف كل البشر. وإلا، ففيمّ يختلف تاريخ عائلتنا، أنا وإياه، عن بعضهما في هذا البلد إن لم تكن فحسب حالتاهما الاجتماعيتان، هو الميسور وأنا الفقير؟

راهب مثل جون - پيار لا يمكنه أن ينسى تاريخا مخطوطا بالدم. إنني أعرف درجة هشاشته تجاه ماضي الاحتلال في هذا البلد. قبل دخوله عزلته، كان حدثني مرة، بمرارة ندم، عن أيام محاصرة مظليي العقيد بيجار حي القصة بمدينة الجزائر وتفجير أحد ملاجئها بمن

فيه من الفدائيين والفدائيات من بينهم طفل. كنا يومها مهمومين بمظاهر العنف المسلح حين يطال الأبرياء، ومنه الحرب الأهلية الجارية هنا في أعلى درجاتها فظاعة. واستمعت له وقد شرد به ذهنه إلى أيام المقاومة في باريس أثناء احتلالها.

كيف لي أنا الذي قاتل النازيين أمس بلا خوف ولا تردد، برغم غطرتهم وجبروت قوتهم، أن أكون أنا من يوجه نيران سلاحه إلى صدور جزائريين في مظاهرات الحادي عشر ديسمبر عام ستين لما كنت شرطيا؟

وقطع ناظرا إلي نظرة استفسار.

هذا البلد كان محتلا. وأهله كانوا يخوضون حرب تحرير.

صحيح.

أنا، كنت أؤدي واجبي ولكن في ارتياب في جدواه من غير أن أصدق ما تقوله صحافة الميتروبول وتلك التابعة لها هنا.

لم أحرك سوى رأسي وعلى طرف لساني كلمة أتفهم.

فراح يمسح بيديه على ذراعيه وصدره وعلى فخذه تباعا، كأنه في حال استحمام تحت دش. ثم قطع فجأة وقال: لن يقنعني أحد بأن ما يجري اليوم ليس حربا دينية.

وتفرسني وكأنه تذكر أنني ما زلت جالسا على الكرسي قبالتة.

حدثتني مرة أن الخلاف بين الديانات وفي الديانة الواحدة نفسها من إرادة الرب. وهو لا يعجزه أن يجعل مخلوقاته جميعا على دين واحد بلا اختلاف. فما الحكمة يا ترى؟

حتى يبلونا.

ألم يوسوس لك الشيطان أن كلا منا، مسيحيين ومسلمين، يضمّر في نفسه رغبة ارتداد
الآخر إلى دينه؟ أليس هذا هاجس كل متدين أن يكون جميع المتدينين الآخرين على
دينه؟

قلت.

إنها نزعة الاستعلائية على روح الغير التي تدمر كل إيمان.

قال.

ليكن. افترض أن الإله خلقنا لنكون منذ البدء على دين واحد.

ابتسمت، لشعوري بأن البشرية كلها على سطح هذه الأرض تتعانق الآن.

لم يبدل تجاهي من سحنته خيطاً. سكت، فحسب.

فقلت.

لماذا إذاً أرسل الإله الأنبياء على أمم متفرقة وأنزل الكتب التي حملوها بلغة أقوامهم؟

تنهد. ثم جلس على حافة سريرته، رامياً نظره في الفراغ بين رجليه.

وقال.

ذات يوم أنزلتُ صورة لافيّجري المعلقة على جدار ذاكرتي. ولكني لم أستطع أن أنزل
صورة هؤلاء المشتبه بهم الذين، بعد مرورهم على مركز العبور والفرز الذي لم يكن سوى
ثكنة للتعذيب، كانوا أنزلوا ليلاً من مركبات نقل الجند تحت الحراسة ووقفوا واحداً جنب
آخر على حافة خندقٍ حُفر في حقل. ثم لإيعاز من قائد المظليين أطلقت نيران البنادق على

ظهورهم فهووا إلى العمق جميعا. كانوا أكثر من عشرين. وكنت أنا من تكفل بتحرير التقرير إلى المصالح السرية.

وهو يرفع رأسه، ناظرا إلي نظرة تعب، وضع راحتيه على ركبتيه.

وكيف أنزل صورة الطفل الذي تمزق في تفجير مخابأ حي القصة؟

لم أنطق كلمة. كنت أشعر بأنه يجد في صمتي متسعا لما يضيق به صدره وفي استماعي له هدأة نفس.

تابع.

عقب استقلال هذا البلد، وقد التحقت بكاتدرائية السيدة الإفريقية في أعالي حي بولوغين، جاءني العسكري الذي لعم المخابأ يطلب الاعتراف. فاستمعت له، ولم يكن يعلم أنني كنت مثله في سلك الأمن وأني كنت شاهدا على ما حدث.

كنت مأمورا، يا أبي.

قلت له في نفسي مثلك أنا.

إني أشعر بذنب يقلق راحتي.

قلت له في نفسي ليس بدرجة شعوري.

كان يمكن لي، لو ملكت الشجاعة، أن أختار إحالتي إلى محكمة عسكرية بدلا من أن أقتل طفلا حتى وأنا في حالة حرب.

قلت له في نفسي لا فرق بيننا.

هل سيشفع لي ندمي؟

لم أهمس له كلمة. لا شك في أنه كان سمع أنفاس ضيقي تتصاعد.

من طبيعة الوحوش أنها تفترس طرائدها بالغريزة فكيف نكون نحن أشد منها وحشية، يا أبي؟

فنطقت له، أخيرا.

لأن لنا عقلا هزمته غريزتنا الحيوانية.

توقعت حدوث أشياء أخرى من جون - بيار، وهو يقابلني على تلك الحال المضطربة، إلا أن يفاجئني بأن انفجر باكيا مثل طفل. فقامت نحوه ووضعت يدي على كتفه فشقق. فتراجعت عنه خطوة إذ قام فأخذ جيبته فلبسها وسواها وبكميها مسح دموعه. ثم ربط نطاقه وعاود الجلوس. فبسط راحتيه نحوي كما في رجاءٍ لأعضده في قوله، في حين غمرتني طمانينة انشروحت لها مشاعري.

أخي أميدي. لعلك تحس كم أرقنتي وجوه هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم، في لحظة ما من تاريخ نزول آبائهم بهذا البلد، متروكين لقدرهم لا يملكون خيارا بين رحيل نهائي تأخر عن أرض ولدوا فيها وبين انتظار موتهم الذي كانوا لا يدرون كيف ينزل عليهم. أكيد.

إنهم أولئك النساء والرجال من العجزة، المقيمون جنبا إلى جنب مع غيرهم من أهل البلد في حي باب الواد، الذين يعيشون حالات الترمل والطلاق والهجر والوحدة ولم يعد لهم أهل ولا أقارب ولا أصدقاء فقضوا غما أو انتحارا أو اختفوا لا أحد يعلم أين. وقليل منهم، ممن اضطره خوفه من الانتقام، لجأ إلى الاحتماء بالكنائس، بينما كان آخرون سيندمجون أو يغادرون أو يموتون بين فكي العزلة والصمت.

قلت.

كنت شاهدا على شيء من ذلك، هنا في مدينة المديّة. فإني أذكر أنه على قدر نشوة الفرح بالاستقلال، التي كانت عارمة غامرة شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فائقة الفرحة بتحريير باريس عظمت، كانت الانتكاسة الكابوسية التي عاشها الأقدام السوداء وبقية الأوروبيين. إنها تراجيديا حقيقية.

لا شيء يسبب ألما لا يزول مثل قسوة التاريخ.

يؤلمني أنا أن أجدادنا الذين دخلوا هذه الأرض لا يحمل الرجال منهم سوى الحقيبة القديمة والنساء صرة الملابس الرثة خرجوا منها بالحقيبة الجديدة ومحفظة اليد الجلدية. ورمى نحوي نظرة حزينة:

ليت أنني لم أكن راهبا فلا انتميت إلى كنيسة ولا اعتنقت أي ديانة ولا جئت إلى هذه الأرض حتى لا أتحمل وزر خطيئة احتلال انتهى إلى حرب انتهت إلى مأساة.

وسألني:

هل التعميد حقا كفيلا بأن يكون مطهرا لنا من الخطيئة وبه، إذا، نستحق دخول الجنة؟

احتلال هذه الأرض كان خطيئة الكنيسة الفرنسية ومسيحها العسكري. حتى وإن كانت محدودة في الزمن فهي ممتدة في ذاكرة الفرنسيين جميعا لا يتطهرون منها إلا بالاعتراف بتعديدهم على حرمة دم غيرهم المقدسة من يوم الاحتلال إلى نهايته.

أخي أميدي. إنني لا أملك شجاعة آدم على ارتكاب معصية المعرفة كي أبحث في أرشيف الكنيسة نفسها فأعلم كم قتلا وكم حرقا واغتصبا وسلبا وإبادة بالسلاح والجوع والمرض زكّته.

كان الإله في عوني وعونك، أخي جون - پيار.

أحيانا أتخيل تَيْبِجِيرِينَ بلا دير فأتساءل إن كان يُكْتَب لها تاريخ، كالذي صنعه رهبانها منذ نشأتها إلى اليوم؟

لا أعتقد.

ثم، هل كان لديرها أن يوجد وكنت أنا وأنت وبقية الرهبان نزلنا فيه لولا الاحتلال فصارت تَيْبِجِيرِينَ شبه وطن لنا؟

لا يمكن.

رعتك عناية الرب.

السلام لنفسك.

ثم أمسيت وحيداً في المكتبة أيضاً

هل يمكنني اليومَ الجزمُ بأن حياة الإخوان السبعة لم تكن لتتعرض لخطر الموت ذبحاً، وهو أفضح موت لإنسان خلقه الإله ليحيا كريماً ويموت كريماً، لولا ما كان يصدر من هناك، وراء البحر، من التشويش الإعلامي على خطفهم والمساومات على تحريرهم، ولولا تعدد مراكز القرار عند إخوان الجبل، الذين كانوا لا يقاتلون بدموية شديدة قوات الأمن الحكومية فحسب ولكنهم كانوا أيضاً يتقاتلون فيما بينهم بشراسة أشد وينكلون بالأبرياء من المدنيين بفضاعة؟

لا أدري.

على كل، فقبل حلول المحنة، كنا أخذنا في الدير «عهد أمان» من أمير. وها أمير آخر ينقضه معتبراً إياه لاغياً. ذلك، لأنه لم يكن هو الذي أعطاه. والواقع أنه فعل ذلك كرد فعل انتقامي منه على ذاك الأمير الأول لقتله أفراداً من جماعته في نزاع بينهما من أجل

السيطرة على حدود الإمارة، التي كانت تَبْجِيرِينُ ضمنها. هنا أقول إن الإخوان السبعة راحوا ضحية ذلك أيضا.

هو أعطى ذميين أمانا من تلقاء نفسه متدخلا في شؤون إمارتنا؟ إذاً، أنا سأريه ما أفعله بهم وبأمانه!

كذلك كان سيخبرني يوما أحد التائبين من إخوان الجبل وهو يحدثني عما خاطبهم به أمير جماعته قبل أن يرسلهم إلى الدير في تلك الليلة الفادحة.

جلدي يقشع إذ أذكر أنه غداة العثور على رؤوس الإخوان السبعة، على جانب طريق مدخل مدينة المدينة، كان النقيب كمال زارني رفقة الشيخ عبد الرحمن فاستقبلتهما في ساحة الدير حيث قدما لي تعازيهما.

قال الشيخ عبد الرحمن:

إنها لفاجعة يعتصر لها قلبي، يا شيخ أميدي. وإني لا أملك سوى أن أدعو للضحايا ربنا الرحيم أن يمنح أرواحهم السلام وأن يشملهم برحمته.

وبينما قد تراجع خطوتين إلى الخلف، عبّر لي النقيب كمال عن أسفه وشعوره بالاعتياظ. وقال إنه يدرك ألمي وحسرتي. وافترض لي أن نهاية الإخوان كان يمكن أن تكون مختلفة لو لم تحاول جهة خارجية استباق الأحداث والدخول على الخط بالاتصال مع الخاطفين لتحقيق سبق سياسي انتخابي، مثلما وقع من قبل في جهات أخرى، في ظروف أخرى مختلفة، من غير مراعاة خطورة الفعل على حياتهم في حال فشل عملية الاتصال.

كنت أدرك أن النقيب كمال يلمح إلى عاصمة غربية في ضفة المتوسط الشمالية المقابلة. ففي أعماقي كان هناك شعور يحضني على الاعتقاد بأن الخاطفين، في الأحوال كلها، كانوا سيقتربون فعلهم الشنيع. وقد يكون ما عجل به هو التمشيط العسكري الذي أطلق عقب الساعات القليلة التي تلت إشعارانا، أنا والأخ جون - پيار، مصالح الأمن بما وقع ليلة

السادس والعشرين إلى السابع والعشرين من شهر مارس. وللنجاة بأنفسهم، قرروا التخلص من العبء ليفكوا عنهم الحصار الذي ضُرب من حولهم أرضاً وجواً؛ وهو ما تحقق لهم في اليوم التالي للعثور على رؤوس الإخوان السبعة. كان ذلك يعني نهاية انتظار ما كان سيسفر عنه الاختطاف فانتهدت معه المطاردة من غير أن ينتهي البحث عن الجثامين، إلى اليوم.

مشدود القلب مشوش الذهن إلى التطورات، خلال الأيام الستة والخمسين التي دامتها محنة الاختطاف، كنت أغلقت جميع المنافذ التي كان يمكن أن يتسرب منها القنوط إلى نفسي. فإني لم أغير، منذ أن عدت إلى الدير، شيئاً من حياة الراهب اليومية؛ بينما كان الأخ جون - بيار دخل في حال من التنسك فأمسينا لا نلتقي في صمت الدير إلا مصادفة. كنت أستيقظ في الرابعة صباحاً من أجل الصلاة والتلاوة الإلهية وتأدية بعض الأعمال اليدوية داخل الدير وتحضير الطعام وتفقد غرف الإخوان، بأسى يعصر قلبي ويحزن روحي، تاركا أبوابها مفتوحة وشموعها منارة.

حتى إذا أعدت فتح مكتبة الدير هذه، التي صارت منذ غيابهم ملجئي من وحشة الفراغ، ودخلت فوقفت بجانب الطاولة -حيث أجلس الآن- التي تحيط بها كراسيهم قابلتني عليها صورهم؛ فهذا لوقا يقرأ وذاك كريستوف يسجل شيئاً وسيليستان رفع رأسه عن الكتاب وهمس لكريستيان على يمينه سؤالاً ترجمته عيناه استغراباً ويول يضغط براحتيه على فكه الأسفل بينما برينو يحدق إليه كأنه ليسأله أبه ألمٌ وميشيل يصلب ثم يقوم في اتجاهي عند مقرأ في الركن لينبهنني إلى أنه حان وقت نقر ناقوس صلاة المساء.

لم أفتح كتاباً. لم أقرأ كلمة. عدت إلى غرفتي فأنشدت مناجاتي اليومية وتمددت في سريري فتناهدت إلي أصواتهم السبعة متداخلة متناغمة وشجية لكأن سعادة بوجه الإله تذبذبها خلال التراتيل. ثم ها همساتهم في الرواق مغتبطين وفي المطعم شاكرين وفي المكتبة مجتمعين كحواريي المسيح. وها حركاتهم كما كنت أراهم في سلام فرادي أو مثني في الساحة أو في البستان وعند مصب العين. وها أطياهم تملأ علي غرفتي واحداً بجانب آخر في ألبستهم الكهنوتية وعلى صدر كل واحد منهم إلى جهة القلب لطفة دم.

أين كنتم. كيف كانت حالكم. أراكم كنتم تؤدون صلواتكم. ماذا كنتم تأكلون وتشربون وأين تنامون. وهل انتظرتهم أخبارا. وهل كنتم مفرّقين عن بعضكم، وذلك ما كان يزيدكم كُرباً وحزناً، أم مجتمعين، ويا ليتكم، فهذه عساها كانت سلوى لكم. وبم كان خاطفوكم يخاطبونكم. وأي معاملة عاملوكم. وأي نظرات بادلوكم وبادلتموهم إياها. وأي كلام كان يُعلن منكم أو يُسرّ. لابد أنهم لم يكونوا جميعا ينوون بكم شرا. أكنتم خائفين من موت عنيف. وأنت الأخ لوقا كيف تحملت تعب جسدك. إني أتذكر قولك «الشيخوخة هي مرضنا الأخير الذي لا نشفى منه». فهل هناك أخيراً آخرُ يأخذنا غير المرض.

لم تأتني منهم إشارة ولا همسة. إنما استداروا وعبروا كأطياف جدار الغرفة الذي لم يعد وكأنه ليس سوى هلام فأصغيت السمع فلم يزد إلي وقع خطواتهم في الرواق وتوهمت أن صوتي الناقوس في الدير ومؤذن المسجد غير البعيد ارتفعا ورأيت وجه المسيح حزينا لحزني.

مُرَاد الشَاهِدِ يَزُورُنِي فِي الدَّيْرِ

إرادة الرب، وليس سواها، هي التي شاءت أن تقيّض لي تائباً من إخوان الجبل شهد اللحظات الأخيرة التي نال فيها رهبان دير تيبجيريّن، الإخوان السبعة، هدية الشهادة، قبل عشر سنين التي باكتمالها اليوم عدأً يكون الربيع دخل نهاية أسبوعه الأول.

فقد جاءني الحارس أحمد لمين يخبرني، هنا في المكتبة قبيل منتصف النهار، أن شخصاً اسمه مراد يلح على مقابلي. لم يخالجنني أي خوف. ليس لأن الأمن قد استتب اليوم ولكن لأنني كنت أشعر بأنه لم يبق من العمر مدّخر لمزيد من الوجود في هذه الدنيا. إن الموت راحة، كما يقول أهل البلد. ماذا أحكي وكيف. إني أشعر الآن بالرجة نفسها تعاودني إذ أشرت إلى أحمد لمين بأن ينصرف إلى شغله، بعد أن استأنست إلى أن لا خطر يتهددني، ورحت أستمع لمراد، الذي لبي دعوتي إلى الجلوس على أحد الكراسي قبالي على طاولة المكتبة بيننا، يخبرني أنه كان أحد الأفراد المسلحين الذين داهموا الدير في ليلة السادس

والعشرين إلى السابع والعشرين من شهر مارس ألف وتسعمائة وستة وتسعين في الواحدة صباحا وبعض الدقائق. وأنه عرف فيما بعد أنني كنت في الدير مع الأخ جون - پيار. وأنه لذلك يشعر براحة نفس لأنه لم يتم الانتباه إلينا، وكان لا يعلم حتى تلك اللحظة أن أحمد لمين هو من أنقذ حياتنا.

وقال:

أنا مراد النعيمي. وهما اسمي ولقبني الحقيقيان.

فعاجلته:

من أولاد يحيى!

تماما.

ففي نفسه كان أدرك أنني لمجرد ذكر لقبه حددت قبيلته. بل، وعرفت عائلته. قرأت ذلك في عينيه.

هل تسمح لي بالتحدث إليك. في صدري أشياء تؤلمني أريد أن أتعافى منها بالبوح بها لك. فربما عرف ضميري بعض السلام. هذا الوجه الذي تراه الآن أمامك أجده تحول إلى صورة أخرى لا تشبه إنسانا من خلق الله كلما قابلت نفسي في المرأة. قد يكون القدر شاء لي ولك أن تكتب لنا الحياة بعد الذي وقع فنلتقي. والحق، أنا من ظللت أقاوم ترددي في التوجه إلى هنا لألتقيك. كنت سمعت كثيرا عن شخصك المستقيم، يا شيخ أميدي. فهكذا سمعتهم ينادونك. وهذه بركة لك عن أفعالك وطيبتك. ولم أصدق حقا إذ أخبروني أنك جزائري.

لم أقاطعه لأسأله عن هؤلاء الذين أخبروه. كنت أحس أنه بلا ريب جمع عني معلومات من محيطه ومن عائلته الفلاحية، التي هي من المنطقة، خلال الأيام التي تلت توبته حتى يستعين بها على لقائي. كانت بي رغبة قوية في أن أسمع منه. ذلك أنني لم أكن أتوقع أن

يأتيني يوماً واحداً من إخوان الجبل ليعيد عليّ ما حصل لإخواني الرهبان السبعة خلال رحلتهم المحزنة إلى نهايتهم الدموية.

سامحني، يا شيخ أميدي. كنت أقول في نفسي، ولم أعلن هذا لغيري، كيف يكون جزائري مسيحياً!

التزمت الصمت؛ فأنا أعرف مثل ذلك الشعور المترسب في وجدان أهل هذا البلد بفعل احتلال لم يسلب منهم أرضهم فحسب بل قطعهم عما يشدهم إلى هويتهم ناصبا لهم عدااء تاريخيا كان في شقه الديني مخجلا.

أنا كنت طالبا في سنتي النهائية بمعهد الكيمياء قبل أن ألتحق بالجبل. وكان أحد أساتذتي هو من أقنعني في ختام الفترة التي دامت بيننا حول بناء الدولة الإسلامية بأن أرتقي إلى مرحلة الجهاد من أجل ذلك.

ووسع لي عينيه كأنه ليسألني.

ولا صدقت أنك تعرف العربية وتحفظ من القرآن ومن الحديث.

هنا، قاطعته:

وتعرف أن الإمام الشيخ عبد الرحمن كان صديقي.

عرفت ذلك، يا شيخ. كما عرفت أنك مولود في أرض الجزائر. وأنت اليوم واحد من مواطنيها، مثلي.

مثلك؟

أمهلني، يا شيخ. أنا أحس جرحك. وأقدر درجة الألم التي يسببها لك. فليمنحني قلبك السليم سعة منه.

مراد وهو ينطق ذلك خالطت نبرته حشجة كتلك التي تسبق البكاء وقد مار في عينيه
بريق دمع.

أنا أشعر بألم أشد من ألمك، يا شيخ، لأنني رأيت كل شيء رؤية العين. ليتني لم أكن هناك.
ليتني كنت سمعت فحسب.

وأجهش.

يا إلهي، أي وحشية تسكن هذا الإنسان الذي يذبح إنسانا بلا شفقة ولا ندم من غير مبرر
سوى أنه يخالفه في الدين أو في المعتقد!

وبعد أن استعاد نفسه:

عشت لا أشكو من أي مرض ولا انتابني يوما صراع. ولكن حين مد لي عمار السكين يقطر
دما لأخرج من أجل ذبح الراهب الخامس الذي كان مقيد المعصمين جاثيا على ركبتيه،
وقال لي «هيا! تقرب إلى الله بالكافر التالي»، أحسست الأرض مادت من تحت قدمي ودار
كل شيء بين عيني وتقيأت وتهاويت مغشيا علي. لا أذكر شيئا بعد ذلك سوى أنني قمت
على ضربات دوس بحذاء أحدهم على جنبي.

وتابع، مهربا نظره عني.

كان عمار ورشيد هما من تناوبا على ذبح الرهبان الأربعة الأوائل. كنت أعرف تعطشهما إلى
الدم الذي لا يقابله سوى الظمأ إلى الماء جراء رحلة في صحراء. كلما قتلا ازدادا ضراوة.
وأنا أعود إلى نفسي من صدمتي، سمعت رشيد يقول: سأتكفل، ردا على من قال: إننا لا
نستطيع حمل أجسادهم. كان يحمل فأس حطب من نوع شاقور بمقبض معدني. فقد غاب
إلى خارج المخبأ لحظات ثم عاد قائلا، وعلى ثيابه برقعات دم: قُضي الأمر. كان رشيد هو
الذي ذبح الراهب الخامس ثم فصل الرؤوس عن الأجسام كما يقطع فروعا من جذوع.

وفيما أنا أكاد أختنق كما في حال غرق من هول ما أسمعته، أرجع مراد بصره نحوي معتصرا
ألماً.

سامحني يا شيخ أميدي إن لم أستطع ذكر أسمائهم جميعاً إلا الطبيب لوقا فهو مشهور جدا
وكان هو آخر واحد نُقذ فيه الذبح. فإني تخيلته هو والراهب الثاني والثالث والرابع
والخامس ثم السادس والسابع، وقد شد عمار تارة ورشيد تارة أخرى بيميناه بكامل أعصابه
على مقبض السكين وبيسراه على قذال كل واحد منهم بالتتابع، أكثر وداعة من خراف.

عندها، كان خيالي المعذب شرد بي عن مراد، إلى مذبح الرب الأعلى وكان الإخوان السبعة
عليهم مقدمةً قربانية تكفيراً عن خطايا خاطفيهم، إذ راح يصوّرهم لي واحداً واحداً ثابتين
صابرين على مصيرهم وقلوبهم نابضة إيماناً، كما قال. فلم تصدر عن أي منهم حركة، لما
لامست شفرة السكين الخرساء الباردة بشرة الرقبة الساخنة، سوى سؤال هادئ خال من
نبرة الخوف أو الإدانة: لماذا أنت تقتلني؛ من غير انتظار إجابة، لأن عمار أو رشيد لا يعرف
رداً. ثم أطبق كل منهم عينيه في لحظة تماس الحديد باللحم مرتحلاً إلى السماء تاركاً
لقاتله جسداً بلا ألم.

لم أجد في نفسي قوة على رفع يدي لأوقف مراد حتى لا أفقد وعيي تماماً بسبب الغليان
الذي أحسسته تركز في رأسي، فكان هو الذي، لتأثره من حالي، لم أشك في ذلك، اعتذر لي
عما قد يكون تسبب لي فيه من ألم وحزن جديدين. واستسمحني في أنه سيغادر. فلم
أمانع، وأنا أحس انقباضاً شديداً في حلقي عن نطق كلمة. فأخرج من جيب سترته الداخلي
دفترًا مدرسياً مطويًا سلمني إياه.

شيخ أميدي. هذا ما أملكه ذكرى لأرواحهم.

ثم وهو يقوم، وقد شكرته وتحركت لأقوم معه، تراجاني براحتيه معاً أن لا أتعب نفسي.

وقال:

أعرف الطريق إلى الباب. سي أحمد لمين في انتظاري.

ثم خرج.

اختفت أجسادهم. دُفنت رؤوسهم. وبقيت أرواحهم

لم أبرح مكاني. فعلى وقع خطوات مراد مبتعدة، كنت فتحت الدفتر الذي كتب فيه: خلال الأيام التي قضيناها مع الرهبان السبعة في السير بين الجبال والوهاد والوديان في الليل والنهار، تنقلنا من مكان إلى آخر بسبب الخوف من الاشتباك مع الجيش أو إحدى الفرق الأخرى من الجماعة. كان ذلك مرهقا جدا لهم. كنا نحن بالنسبة إليهم في عمر أولادهم. كان الطبيب في عمر جدي. كلما توقفنا شد بيديه على صدره وسعل إلى درجة الاختناق. لم يكن مسموحا لأحدنا بأن يقترب منه أو يكلمه. كان بقية الرهبان على تباعد بينهم بحيث لا يستطيعون أن يرسلوا إليه، مثل طيور كئيبة، سوى نظرات الإشفاق حيننا والمواساة حيننا آخر. كان في عيونهم شعور بغبن أسود وعلى وجوههم أمارات أطفال أيتام.

لم يفارقني، خلال أوقات السير والتوقف والمبيت في هذا المخبأ المهيباً أو تلك الدار المهجورة أو في العراء الموحش، إحساس بأنه لو كانت هناك نية في الحفاظ على الرهبان أحياء، إلى أن يتم إطلاق سراحهم وعودتهم إلى الدير، لقدم الدواء إلى المرضى منهم، ولا سيما إلى الطبيب الذي يعاني حساسية الصدر. كان هناك غيره من المصابين بالزكام ومن يعانون من آلام الظهر والمفاصل. وكانوا جميعا جائعين. كنت أراقب ما يقدم لهم من أكلنا فلا يتناولون منه على مضمض إلا نذرا. وكانت ثيابهم الكهنوتية التي أخرجوا بها من الدير بدأت تظهر عليها تمزقات في المرافق والرُكَب، بفعل الاحتكاك بأغصان أشجار الغابة والأدغال، وكذا شوائب الاتساخ؛ فإنهم كانوا لا ينامون إلا أرضا وكانوا لا يحملون غيرها. ثم

إنهم لم يغتسلوا، ولو مرة، عدًا وجوههم بما قل من الماء. أما لحاهم فقد طالت أكثر لكونهم لم يحلقوها أو يهدبوها، كما كانوا يفعلون من قبل.

قضاء حاجتهم، في الخلاء، كان من أشد اللحظات حرجا لهم. كنت أدرك ذلك. لا ماء كانوا يستعملون ولا ورقا صحيا سوى حفنة من تراب أو حجرة صغيرة وأحيانا قطعة عشب. كانوا لا يفعلونها إلا تحت حراسة. كنت أقول في نفسي إنه من حظهم، كي يحجبوا عوراتهم، أنهم يلبسون عباءات طويلة ينشرون، مثل مظلة، الجانب الأسفل منها حين يُقعون.

ولطالما شغلني بهم ما يفكرون فيه خلال تلك الساعات من الصمت والسكون ليلا ونهارا فأتخيل ما تركوه خلفهم في الدير من حياة، على زهدا وبساطتها وشظفها، هم راضون بها، لأنها بلا خوف تتعذب منه أرواحهم مثلما هم الآن. كنت متيقنا من أنهم يحلمون بالعودة سالمين وحينها يصلون كثيرا ويشكرون ربهم كثيرا.

ففيما بينهم كانوا لا يتكلمون إلا همسا حين يجتمعون لأكل أو لصلاة من غير أن يثير ذلك لدينا ارتياباً في أنهم يتآمرون. لم يكن في الرهبان ما يثير الشك أو التوجس والخوف. كانوا مسالمين وادعين.

انظروا إليهم. إنهم مثل خراف ضالة كما يصفهم إنجيلهم.

كذلك قال لنا عنهم الأمير أبو عبد الرحمن، قبل ساعات من البدء في ذبحهم، وهم واقفون بعضهم جنب بعض لآخر استراحة لهم خارج المخبأ في ما يشبه ساحة.

في أعماقي كنت أجدهم على إيمان راسخ بما كان الله قدره لهم، وقد تفككت لذلك، مثل حبات سبحة، أفكار قناعتني في أفعال جماعتي كلية. فلو كنت وجدت أحدا من أفرادها ممن أثق به لأعلنت إليه أنها زمرة ضالة ونحن معها هالكون. فإنه حدث، من فرط تأثري بما كان عليه الرهبان من رباط وسلام، أن كنت خلال نوبة حراستي وضعت سلاحني إذ راحوا

يصلون فعزّرتني الأمير. وتوعدّ أيا منا أن يرخي يقطته. لم أجازف بالرد عليه بأنه ليس هناك ما قد يصدر عن مثل هؤلاء يتهددنا. فهو نفسه كان يعلم ذلك. وكنت أدري من جانبي أنه تشدد حتى لا تلين قلوبنا تجاه رهبان كنت لا أعرف عنهم إلا ما أسمعهم.

صلاتهم الجماعية، جاثين على رُكبهم أو قائمين، كانت إنشادا لا أميز كلماته. كانوا يفعلون ذلك صباحا وبعد الظهر وقبل المغرب. على أنني علمت لاحقا أن هناك صلوات أخرى وتراويل لم يكونوا يؤدونها. فلا أحد منا كان يشك في أن الرهبان كانوا لا يقيمون في صمتهم جميع صلواتهم بلا حركات ويتلون أناشيدهم في قلوبهم.

شخصيا، لم أكن رأيت في حياتي راهبا. ولا شاهدته يؤدي صلاة أو يرفع وجهه إلى السماء أو يتلو آيات من كتابه، كما نقرأ نحن آيات من القرآن. قلت، في لحظات خلودي إلى نفسي، هناك خلل ما. ما هو؟ نحن وهم من خلق الله جميعا. ولو كان الله لا يريد من خلقه ما خلقهم.

لم يكن يغيب عن ذهني أن الأمير، بتشدده تجاه الرهبان، إنما هو ليُعدنا لما كان خطط له مسبقا. في الأثناء، كان يعذبني كيف انتهيت تحت إمرة شخص مثله مطرود من المدرسة لنتائج السيئة ولكونه من عائلة لا سمعة لها وأنا أفوقه تعلما وتكوينا ومكانة اجتماعية. إن وصفته قلت إنه غليظ القلب لا تسكنه ذرة رحمة. فظ النفس رجيما. مظلم الروح حقود.

في هذه اللحظات، من منتصف ليل آخر من ليالي أرقتي، أشعر بكياني تضعض وجسدي أفلت مني. وها إنني أراني روحا معذبا في العراء. كيف قبلت الأمر فأقدمت عليه ونفذته كمنوم بلا إرادة. أين كان عقلي لحظة إنعاني لفتوى أستاذي بالجهاد. ما الذي غير مجرى حياتي. ليست المشيئة. البتة. لماذا لم أتمم مساري الجامعي حتى نهاية الدكتوراه، أنا المفتون بالكيمياء والبيولوجيا الحيوية خاصة. كيف تخدر وعيي عن مواجهة أستاذي، الذي كان يعوض الخلل في كفاءته بالتحريض الديني من أجل إعلان الجهاد على الطاغوت، كما يقول، فوجدت نفسي في الجبل، وقد فقدت صلتي بالعائلة وبالحياة الإنسانية. وكدت أصبح بلا تاريخ شخصي ولا إرادة ولا حلم منصاعا مخذولا ومرهونا لإمرة شخص مظلم

الروح، ومن حوله هؤلاء الذين بدوا منذ وهلة لقائي بهم أكثر ظلامية نازلين من جحيم لسوق غيرهم إليه مثل قطيع نحو مسلخ.

كم تمنيت، فعلاً، أن تنفك العقدة التي ضُفرت حولنا بأن يُطلق سراح هؤلاء الرهبان الذين لا مسؤولية لهم في ما يحدث ولا ذنب. لم أكن أجد، من بين أفراد جماعتي، من أفاتحه في ما يشغلني. كنت وحيدا في همي الذي بدأ ينهشني من الداخل. بم أجيب يوم القيامة ربي حين يسألني بأي ذنب قُتل عبّاده السبعة؟

كنت أتوقع من الأمير، الذي إذ أوصلنا إليه الرهبان في الدار الحمراء حيث استقبلهم من غير أن يكلم أحدا منهم وأبقى على خمسة عشر نفرا منا وصرف البقية إلى مكان آخر، أن يتوصل إلى حل لا يؤدي إلى نهاية مأسوية. كنت أعلم أنه نزل إلى الدير مرة واحدة على الأقل فعرفهم وعرفوه، لاسيما الراهب الطبيب.

لكن توقعي ذاك كان يزداد ضالة كلما صادف أن رأيت الأمير يُجري، بعصبية وغضب، اتصلا هاتفيا جديدا بواسطة هاتف نقال خلوي؛ الأمر الذي جعل يشيع بيننا أنه يسعى ليس للحصول، فحسب، على إطلاق سراح بعض مساجين الجماعة ولكن أيضا لطلب فدية مقابل تحرير الرهبان. كنت أعلم أن السلطات الأمنية لن تفاوضه على شيء من ذلك القبيل.

فألمي كان معقودا على سفارة أجنبية لها ضلع في ما حدث. فإني كنت ممن أمّنوا وصول أحد مسؤوليها إلى الدار التي كان الأمير استقبله فيها حيث عرض عليه الرهبان السبعة يومها للاطمئنان على أنهم لا يزالون على قيد الحياة. ولكنه لم يتسرب لي أي شيء مما دار بينهم وبين المسؤول، الذي كان في ثياب رسمية من بدلة زرقاء وربطة عنق بنفسجية على قميص أبيض، إلا ما كان سيتقطر من فم رشيد.

الكافر جاء يفاوض من غير أن يقدم شيئا ملموسا.

كذلك نطق لنا بجانب السائق.

كنا ثلاثة في المقاعد الخلفية لسيارة من نوع تويوتا بيك أب تفتح طريق العودة أمام سيارة المسؤول المموهة من نوع غولف التي نزل منها في مسلك جانبي وركب سيارة من نوع مرسيدس نحو الطريق الوطني.

خشيةً أن يؤثر علينا سلوك الرهبان السبعة، الذي اتسم طوال مدة السير والتوقف والترحل بالزهد في كل شيء فلم يطلبوا أفرشة ولا أغطية ولا أكلا ولا شرابا إلا إذا قُدم لهم ذلك إضافة إلى أداء صلواتهم في سكينه وخشوع، فإنهم كانوا يعزلون فرادى تحت الحراسة إلا مرة واحدة إذ ناموا مجتمعين في تلك الدار المهجورة الواقعة في سفح جبال بوگرّة، التي تعود إلى أحد الفلاحين، حيث قابلهم مسؤول السفارة الأجنبية.

وفي الغد من ذلك كنا، وبشكل مفاجئ، غادرنا تلك الدار فجرا. كنا نعلم أن الجيش يتعقبنا. وسرنا مشيا وسط غابة كثيفة. كان رهبان ثلاثة من بينهم الطبيب قد تعثروا من التعب غير مرة. بل وسقطوا فلم يستأنفوا السير إلا بصعوبة تحت توبيخ الأمير الذي كان يعيش حالة رهاب تطبق علينا نحن فلا نغدو نفكر في غير الموت أو القتل؛ لا شيء غيرهما. وعند أول مخبأ في طريقنا، توقفنا. كان مخبأ مهياً إلى ما يشبه الغرف بعوازل من البلاستيك، في عمق غابة كثيفة، زرعنا من حوله الألغام.

كانت أسابيع أخرى طويلة وثقيلة ومقلقة قد فاتت علينا في المخبأ نفسه، نظرا إلى حالة الرهبان الصحية التي صار معها تنقيلم متعذرا، لَمَّا حملت لهم مرة طعاما كان خبزَ فطيرٍ وماء، فوجدت وجوههم تغير لونها إلى الصفرة وعيونهم تكاد تغيب إلى داخل محاجرها حتى لتحسبهم منخورين من الداخل نخرا. كان الطبيب لا يتنفس إلا بصعوبة وقد نظر إلي نظرة ساهمة وكأنه يعرفني ثم أطبق جفنية متعباً. لم أكن أدري ماذا كان يريد أن يقوله لي. كانت أجسامهم منهكة تماما. كانوا يعانون من أنيميا حادة.

في الأثناء، كان تنهأ إلي من خارج المخبأ كلام بين الأمير، لأنني أعرف صوته، وبين مقربيه جرى لوقت قصير حول الرهبان. وانتهى إلي قول الأمير: «نحن مضطرون. يجب أن نتحرك»، لأنه نطقه بعصبية.

بعد لحظات من ذلك، دخل على الرهبان كل من عمار ورشيد فقيدوا خمسة منهم، من معاصمهم خلف ظهورهم، وأخرجوهم بينما بقيت بعيدا عن الطبيب وراهب آخر. إني أعجز عن أن أصف بالكلمات ما حدث. فإلى الآن أحسبه كان كابوسا عشته أكاد لا أفيق منه. كان إخراجهم واحدا خلف آخر، من دون أن تظهر على وجه أحدهم دلالة فزع أو سؤال أو تلكؤ مثل مسافرين يخرجون من محطة لرحلة بلا نهاية، هو آخر حركة رأيتها لهم معنا. كنت أحس مصيرهم. فإنه سبق لي أن عشت صورا من قتل أفراد من الجيش كانوا يقعون أسارى في قبضتنا خلال الكمائن أو في الاشتباكات. توقعت أن أسمع طلاقات رصاص. ولكنني تذكرت في اللحظة أن الأمير كان يأمر بأن لا تطلق رصاصة واحدة على أي كان يقع بين أيدينا لينفذ فيه حكم القتل.

الطبيب والراهب السابع كانا هما آخر من خرجا من المخبأ تحت حراستي أنا وعبد الغني عند مغادرتنا له نحو مكان آخر غيره، وقد حملنا حقائبنا الظهرية، فمررنا، حسب ما تعمد الأمير أن نراه نحن جميعا والراهبان، على الأجسام الخمسة بلا رؤوس. وقريبا منها، بينما كانت الشمس تميل غربا، توقفنا لإشارة الأمير الذي أجرى مكالمة هاتفية، وقد راح يتناهى إلينا أزيز مروحيات حربية لم تلبث أن حلقت اثنتان فوق رؤوسنا تحجبنا عنهما الأشجار الكثيفة. لم يكن يخيفنا أن تطلقا نيرانهما علينا لأن دروعنا كانت هي الرهبان السبعة، الذين كان أمر قتل الخمسة منهم لا يزال غير معروف، بقدر ما كان يرعبنا أن يحدّد موقعنا فننتعرض لإنزال من مظليي القوات الخاصة. ثم أشار الأمير إلى رشيد نحو الراهبين، مبعدا الهاتف عن أذنه.

سنتعطل بسببهما. اجمع رأسيهما مع بقية الرؤوس الأخرى. إنهما لا يستطيعان تحمل السير. وأمال رأسه إلى الخلف ملاحقا بنظراته المشوشة المروحيات تباعدان. ثم توجه إلينا.

يجب أن نخرج من طوق الحصار فورا.

وأعاد الهاتف إلى أذنه يُسمع بعصبية من كان معه على الخط.

أنتم قطعتم الاتصال بنا ونحن قطعنا رؤوس الرهبان.

وعين ثلاثة من المجموعة.

أنت وأنت وأنت! عودوا إلى المخبأ وأحضروا ما تحفرون به لدفن جثثهم. هذا ما لهم علينا أمام الله.

قلت في نفسي: وأنت تعرف الله!

وأمر أحد الثلاثة.

مَوْهوا المخبأ ثم التحقوا بالمكان الذي تعرفه أنت.

كان رشيد وعمار هما من حملا في كيسين الرؤوس السبعة: أربع للأول وثلاث للثاني.

في طريق عبورنا ليلا، كنا انتزعنا من أحد الفلاحين سيارة شحن صغيرة وضعنا في خلفها، حيث ركبت أنا وعبد الغني بسلاحينا، الرؤوس السبعة في كيس واحد. وعند الوصول فجراً إلى النقطة التي حددها لنا الأمير، كنت فقدت السيطرة على غثياني فتقيأت جراه، فلم أنزل. كان السائق ومن معه برفقة عبد الغني هم من سحبوا الكيس فأخرجوا منه الرؤوس السبعة وحطوها بعضها بجانب بعض على رصيف طريق مدخل مدينة المدينة فعصرت ما في بطني وغُشي علي. كان عبد الغني هو من هزني بكتفي فأفقت فوجدت نفسي عند مدخل الغابة حيث تركنا السيارة من غير أن نحرقها، كما كنا نفعل غالباً. وواصلنا مشياً نحو المخبأ.

بعد أسبوع من ذلك، وقد التجأنا إلى مخبأ آخر، كان الأمير أطلعنا على أنه سيغيب في مهمة لم يكشف لنا عنها، كما هي عادته. واصطحب سبعة من أمنائه المقربين من بينهم أبو الحارث ورشيد وعمار، بينما أمرنا نحن الثمانية الباقين بالمكوث في المخبأ إلى حين عودته - التي لم تحدث أبدا لسقوطه هو ومرافقوه في كمين قاتل نصبه له أمير مجموعة

أخرى انتقاماً منه على تعديه على محيط دائرة إمارته التي كانت ضمنها تَبْجِيرِينُ ومن فيها وما عليها ولا سيما الدير.

في تلك الليلة، كانت نوبة حراستي عند مدخل المخبأ. وكانت تلك هي فرصتي التي خططت لتنفيذها منذ أن وُضعت رؤوس الرهبان السبعة على الرصيف وكأنها أحجار ليست من لحم آدم لا دم كان يجري فيها ولا في جماجمها أدمغة لا تحمل عقولا هي أفضل ما وضعه فيها خالقها!

ففي غياب الأمير، كنا ننام ملء جفوننا ليلاً أو نهاراً مسترجعين ما فاتنا من ساعات وأحياناً من ليالٍ. ولأطمئن، دخلت المخبأ فعاينت أن كل شيء هادئ. وسمعت شخير عبد الغني الذي أميزه لشبهه بطلقات رشاش متقطعة تُسمَع من بعيد. ثم خرجت فنزعت عن رأسي قبعتي وقميصي الأفغانيين، مبقياً على صداري وسروالي وحذائي الرياضي لأكون أكثر خفة. ورميت خطواتي الأولى في طريق تحرري حاملاً سلاحي على كتفي سائراً الليل كله إلى أن طلع الصبح فاهتديت إلى جهة الشمال.

كانت الشمس قد سامتت رأسي تماماً لما وقفت أمام الثكنة العسكرية في ضاحية مدينة المدية فوضعت سلاحني بجانب قدمي اليمنى وامثلت لأمر الحارس مصوباً نحو بندقيته.

انزع ملابسك بهدوء. هكذا. الآن، ضع يديك مقبوضتين فوق رأسك وتقدم!

آخِرُ مكالمة بيني وبين مُراد. آخِرُ زفرة

تخيلت مراد بلا عورة إذ وقف أمام الحارس عارياً من أثواب خطيئته.

وها أنا، على بعد أسابيع من ذلك، قمت أخيراً من كرسي فأحسست ثقل رصاص في ركبتي. فإنه لم يكن صدفة أن ترك لي مراد تحت جملته الأخيرة تلك رقم هاتف نقل.

في مكتب الدير، من حيث كان الأخ كريستيان خرج آخر مرة كيلا يعود أبدا، شكلت الرقم من الهاتف الثابت واتصلت فجاءني على الطرف الآخر صوت هادي صاف. كان صوت مراد. فإني أذكر الأصوات كما أحصي الأسماء. أحسسته تخلص مما كان شابه من تأثر، مثلي، يوم زارني هنا في مكتبة الدير.

كنت أنتظر مكالمتك، يا شيخ أميدي.

أين أنت الآن، يا سي مراد. أحب أن أقول كيف حالك.

أنا بخير وفي مكان آمن.

أود فقط، لو أكملت فضلك، أن تحدد لي مكان دفن أجسام الإخوان.

لا أذكره بالضبط.

لا عليك.

حتى ولو اختفت أجسامهم فإن أرواحهم وقد صاروا مطوّبين ستظل إلى الأبد محلقة في سماء تبيحيرين.

طوبى لقلبك السليم.

إنما الجبل الذي كنا فيه اسمه بوگرّة. أنت تعرفه، يا شيخ أميدي.

أعرف شساعته وصعوبته وكثافة غابته. أعرف، يا سي مراد.

وتلك حقيقة. فإن أمير الجماعة، كما كان مراد أخبرني، لا يُطلع إلا المقربين منه على أسماء أماكن تحركاتهم المحددة عنده في خريطة لا تفارقه مثل سلاحه، خشية أن يرتد واحد من الجماعة أو يقبض عليه فيقر بها لمصالح الأمن.

قد أزورك مرة أخرى، يا شيخ أميدي، في الدير من أجل أن أقف على مدافن رؤوسهم وأطلب المغفرة من الله.

ليعمر الإله فؤادك محبة، يا سي مراد.

إلى لقاء، يا شيخ.

فرددت، وقد ألهمت صدري زفرة.

رافقتك عناية الإله.

سعيدة. ١٤ مارس ٢٠٢٢

ذكرى لأرواح الرهبان السبعة على تراب تينجيري.

كانوا يوم اغتيالهم، في ٢١ من شهر مايو ١٩٩٦، في هذه الأعمار.

الأخ پول دوشيبي، ٨٢ سنة

الأخ كريستيان لومارشاند، ٦٦ سنة

الأخ سيلستان رينغارد، ٦٢ سنة

الأخ كريستيان دو شيرجي، ٥٩ سنة

الأخ پول فاقر - ميغيل، ٥٧ سنة

الأخ ميشيل فلوري، ٥٢ سنة

الأخ كريستوف لوبروطن، ٤٥ سنة

1. الغلاف
2. تينجيريُن
3. تينجيريُن
4. الفصل الأول: المجيء إلى تينجيريُن
5. الفصل الثاني: رحلة الإخوان السبعة إلى تينجيريُن نحو الجلجنة
6. الأخ سيلستان قتل الغير كأنما قتل الإله
7. الأخ ميشيل قلق في عزلة الحزب الأهلية
8. الفصل الثالث: سبعة رؤوس طوباوية لثراب تينجيريُن